

رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر



أشرف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة العامة
للكتاب

رحلة عبد اللطيف البغدادى ف مصر أو

كتاب الإفادة والاعتبار
فى الأمور المشاهدة والحوادث المعانيمة بأرض مصر

أشرف على إعداد هذه الطبعة د. محمد
عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الطبعة الثانية



المكتبة المصرية العامة للكاتب

١٩٩٨

فهرس

الصفحة

الموضوع

٧	دراسة رحلة عبد اللطيف البغدادي وتحقيق أهم ما ورد بها .
٣٣	مؤلفات البغدادي الأخرى والمراجع التي تناولته . . .
٣٥	من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

المقالة الأولى

	الفصل الأول
٥٥	في خواص مصر العامة
	الفصل الثاني
٦٠	فيما يختص به من النبات
	الفصل الثالث
٨٠	فيما يختص به من الحيوان
	الفصل الرابع
٨٩	في اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة
	الفصل الخامس
١١٢	فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن
	الفصل السادس
١١٨	في غرائب أطعمتها

المقالة الثانية

	الفصل الأول
١٢٥	في النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك . . .
	الفصل الثاني
١٣٢	في حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة
	الفصل الثالث
١٤٣	في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة
١٥٣	كشاف

دراسة رحلة عبد اللطيف البغدادي

وتحقيق أهم ما ورد بها

يعد هذا النص الذي بين أيدينا من أهم ما قدمه لنا الرحالة العرب عن مصر ، فهو نص علمي بكل معاني الكلمة ، وترجع أهمية هذه الدراسة التي نقدم بها للرحلة ، الى أنها تعطي لكتابات البغدادي طعما وتقرب معانيه للقارئ المعاصر ، كما تضيف على نص الرحلة أبعادا عميقة في نقاط بعينها كان يمكن أن يمر عليها القارئ العادي مروراً عابراً ، ولم نتعرض في هذه الدراسة لكل ما نريد توضيحه ، وإنما اكتفينا بنقاط جوهرية ، وتركنا الباقي للتعليقات المفصلة التي ذيلنا بها صفحات الرحلة ، وهي تعليقات وشروح تربو على السبعين تعليقا وشرحا .

ويطالع القارئ في هذه الدراسة عن رحلة البغدادي (أنهى كتابتها سنة ٦٠٠ هـ) ، تحليلا لما جعلنا له عناوين فرعية كالتالي :

- المصريين ، أعراقهم وتعدادهم .
- عقيدة الحج الى أهرام مصر .
- لم يرد ذكر للأهرام في التوراة .

- المصريين وأكل لحوم البشر •
- النباتات •
- عن عالم الحيوان في مصر •
- سر اختفاء التمساح •
- البغدادي والوصف الجغرافي •
- مكانة البغدادي بين الرحالة العرب •
- رحلة البغدادي تفسر بعض التعبيرات الشعبية المعاصرة •
- مؤلفات البغدادي الأخرى والمراجع التي تناولته •

المصريون ، أعراقهم وتعدادهم

يورد لنا رحلة البغدادى هذه كثيرا من المعلومات التى نفيدنا فى تحديد أعراق المصريين المعاصرين ومعسوفة الدماء التى تسرى فى عروقهم . فهو عندما يحدثنا عن جفاف النيل أو انخفاض مستوى مياهه انخفاضا هائلا ، وما صاحب ذلك من مجاعة وقحط شديدين حتى أكل بعض الناس بعضهم الآخر ، وأكلوا الميتة حتى التى صارت رميما ، إنما هو فى الواقع لا يحدثنا عن المماليك الذين جلبهم بنو أيوب أو بقايا المماليك من عصور سابقة (١) وإنما يحدثنا عن المصريين الأصليين ، سواء منهم من صار مسلما أم ظل على مسيحيتته ، فهؤلاء هم الذين عز عليهم الطعام ، بالإضافة لمصريين آخرين من أصول حبشية أو سودانية . أما ممالك بنى أيوب وغيرهم ، فقد كانت الأرزاق تصلهم من مناطق العالم الإسلامى غير المنكوبة ومن مخازن الدولة . لكن كرم الملك العادل ومماليكه لم يظهر بشكل واضح الا فى التبرع بالأكفان ، اذ يذكر لنا ابن تغرى بردى فى كتابه الشهير (حسن المحاضرة) أنه كفن فى هذه السنة (٥٩٧ هـ) من ماله ٣٠٠٠٠٠ من الغرباء ، والمقصود هنا أهل مصر الذين هربوا من المجاعة الى القاهرة (يستخلم البغدادى لفظ مصر ليقصد به سكان الصعيد والدلتا ، أما القاهرة أو مصر القاهرة فيقصد بها العاصمة - المدينة المعروفة) ووزع بعض ماله على ذوى البيوتات والمساكين .

واذا علمنا أن هذه المجاعة التى خربت بسببها مصر بحيث لم يصبح فى قرى بأكملها نفس واحدة ، لم تكن هى

(١) لا نقصد كما لا يخفى على فطنة القارئ عصر الحكم المملوكى الرسمى الذى بدأ سنة ١٢٥٠ م (القرن الثالث عشر للميلاد) وإنما نؤكد هنا ان الوجود المملوكى وانتشار هذا العنصر وحكمهم مصر بشكل غير مباشر يعود على الأقل للمقرن التاسع للميلاد .

الوحيدة في التاريخ المصري ، وانما حدثتنا كتب التاريخ بإيجاز عن فحط مشابه سنة ٢٩٠ هـ (الدولة الطولونية) وعن شدة اكلت الاخضر واليابس وراح فيها خلق كثير زمن الدولة الفاطمية عرفت بالشدة المستنصرية - اتضح لنا ان العنصر المصري الاصلى تعرض لهلكة شديدة ، ومع أن البغدادي قدم لنا وصفا مفعما بالحياة للمجاعة الناتجة عن هبوط النيل هبوطا شديدا في أواخر أيام الدولة الأيوبية ، إلا أنه من المفيد ذكر ما أوردته بعض المصادر الأصلية الأخرى ، وقد اخترنا أن ننقل من حويلات ابن تغرى بردى في كتابه (حسن المحاضرة) عن هذه المجاعة ، لأنها ضببطت الحوادث بالسنوات بشكل دقيق :

حوادث سنة ٥٩٧ : « وفيها كان هبوط النيل ولم يعهد ذلك في الاسلام الا مرة واحدة زمن الفاطميين ، ولم يبق منه الا شيء يسير وعم الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس الى المغرب والحبشة واليمن والشام وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق .. »

قال أبو المظفر : « كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه ونسيه ، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا . وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس اليه الى منزله ليضيئه فيذبحه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء كذلك فكانوا يذبحونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، وفقدت الميئات والجيف من كثرة ما أكلوها . وكانوا يختطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم . وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفا ، وامتلات طرقات المغرب والمشرق والحبشة والشام برمم الناس ، ووصلى امام جامع الاسكندرية في يوم ما يزيد على ٧٠٠ جنازة . وقال العماد الكائبات الاصبهاني : وفي سنة ٥٩٧ : اشتد الغلاء وامتد البلاء وتحققت المجاعة وتفرقت الجماعة وهلك القوى فكيف الضعيف ! ونحف السمين فكيف العجيف ! وخرج الناس حذر الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر في الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم ، تسترق الجباع بالليل .. »

قال : وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد هدمت
بنيان مصر ، فماتت تحت الهدم خلق كثير ، ثم امتدت الى الشام
والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم تبق منها جدارا الا حارة
السمره (السمره والسامرة قوم من اليهود من قبائل
بنى اسرائيل يخالفون اليهود في بعض احكامهم كانوا
نحوه من جاء بعد موسى عليه السلام وقولهم لا مساس وزعمهم
ان نابلس هي بيت المقدس) وماتت تحت الهدم ٣٠٠٠٠
وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل وامتدت الى دمشق
فسقط بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق ، واكثر الكلاسة
والبيمارستان النوري ، وعامة دور دمشق الا القليل ، فهرب
الناس الى الميادين وسقط من الجامع ست عشرة شرفة
وتشقق قبة النسر (قبل جامع دمشق) .

أمر النيل سنة ٥٩٨ :

الماء القديم ذراع واحدة واربع عشرة اصبعاً . مبلغ
الزيادة خمس عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون اصبعاً . ومن الامور
التي تسترعى الاهتمام ان البغدادى ميز لنا بين طعام العوام
(المصريين الاصليين) وطعام الخواص (المماليك والرؤساء)
فالأطعمة التي تدخل فيها اللحم بشكل واضح خاصة
ما يسمى (رغيف الصينية) المحشو باللحم المدقوق واللوز
والفستق والسكر وماء الورد والمقلو بزيت السيرج . الخ
هى من أطعمة الخواص .

أما العوام فياكلون الملوحة (يسميها البغدادى
الصحناء) والخبز والتين الشوكى (يسميه البغدادى الصبر
بكسر الصاد) وينسبون البطاطا ، وياكلون فيران الغيط
(نوع من الأرناب ويسمونها الفيران البيضاء) ، ويصنعون
من البطيخ الأخضر نوعاً من النبيذ .

عقيدة الحج الى أهرام مصر

عندما يقول لنا البغدادى ، انه قرأ في بعض كتب
الصائبة القديمة « ان أحد هذين الهرمين هو قبر غاذيمون
والآخر هو قبر هرميس ويؤمنون انهما بنيانان عظيمان وان

غاذيمون (أو اغاذيمون) أقدم وأعظم ، وأنه كان يحج إليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض ٠٠٠ » ٠٠ أقول أننا عندما نستمع الى ذلك من البغدادي بالذات ، فلا بد أن ننبه ونتوقف لان البغدادي ولد في بغداد وعاش شطرا كبيرا من حياته فيها ، حيث طوائف الصابئة التي كان لها وجود على أيامه ، بل ولا زالت موجودة حتى الآن ٠ وقد أوردنا نقولا طويلة في الحاشية تعليقا على ذلك من كتاب ابن حزم الظاهري فليرجع اليها من يشاء ، أما هنا فلا بد أن نذكر أننا نلمح شبهة فعلا بين الحكم المنسوبة الى هرميس ، والحكم التي تطالعنا في الكتب التي تتعرض لحكم الفراعنة ونصائحهم ٠ وقد جعل الشهرستاني في كتابه الشهير (الملل والنحل) الصابئة كأصحاب عقائد مغايرين للحنفاء (الموحدين الأوائل) وأجرى بين الطائفتين حوارا طويلا ٠ والطريف أن الشهرستاني نفسه يذكر لنا أنه لا يستطيع أن يقول كل ما يعرفه عن هرميس والصابئة والحنفاء ، فيذكر لنا عبارة غامضة تؤثر نقلها كما هي :

« وكان في الخاطر بعد زوايا نريد زمليها ، وفي القلم خفايا أكاد أخفيها ، فعدلت عنها الى ذكر حكم هرمس العظيم ، لا على أنه من جملة فرق الصابئة ، حاشاه ، بل على أن حكمه مما تدل على تقرير مذهب الحنفاء في أثبات الكمالات في الأشخاص البشرية ، وإيجاب القول باتباع النواميس الالهية ، على خلاف مذاهب الصابئة » (١) ٠

لكن الصابئة أنفسهم يعظمون هرميس وينتسبون اليه ، بصرف النظر عن قول الشهرستاني الذي اعترف هو نفسه أنه لا يستطيع أن يصرح بكل ما عنده ٠ ومن حكم هرميس (أو هرمس) ما يتجلى من خلال حواراته التالية :

« ٠٠ سئل : بماذا يحسن رأى الناس في الانسان ؟ قال : بان يكون لقاؤه لهم لقاء جميلا ، ومعاملته اياهم معاملة حسنة ٠

(١) الشهرستاني ، أبو الفتح محمد ، الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٤٤

(طبعة دار المعرفة - بيروت) ٠

وقال : مودة الاخوان أن لا تكون لرجاء منفعة ، أو لدفع مضرة ، ولكن لصالح فيه ، وطباع له .

وقال : أفضل ما في الانسان من الخير العقل . واجدر الأشياء أن لا يندم عليه صاحبه : العمل الصالح . وأفضل ما يحتاج اليه في تدبير الأمور الاجتهاد ، وأظلم الظلمات الجهل . وأوثق الاسار الحرص .

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصديق في الغضب ، والوجود في العسرة ، والعفو عند المقدرة .

وقال : من لم يعرف عيب نفسه ، فلا قدر لنفسه عنده .

وقال : الفصل بين العاقل والجاهل : أن العاقل منطوقه له ، والجاهل منطوقه عليه .

وقال : لا ينبغي للعاقل أن يستخف بثلاثة أقوام : السلطان ، والعلماء ، والاخوان . فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالاخوان أفسد عليه مروءته .

وقال : الاستخفاف بالموت أحد فضائل النفس .

وقال : المرء حفيظ له أن يطلب الحكمة ويثبتها في نفسه أولا ، بأن لا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار ، ولا يأخذ الكبر فيما يبلغه من الشرف ، ولا يعبر أحدا بما هو فيه ، ولا يغيره الغنى والسلطان ، وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه ، ودينه ما لا يختلف فيه ، وحجته ما لا ينتقض .

وقال : أنفع الأمور للناس الفناعة والرضى . وأضرها الشره والسخط . وانما يكون كل السرور بالقناعة والرضى ، وكل الحزن بالشره والسخط .

ويحكى عنه فيما كتبه : أن أضل الضلال والهلكة ، لأهله ،
أن يعد ما في العالم من الخير من عطية الله عز وجل ومواهبه •
ولا يعد ما فيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكائده •
ومن افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعثها حتى يجازى
بها • فكيف يخلص من أعظم الفرية على الله عز وجل أن يجعله
سببا للشرور وهو معدن الخير ؟

وقال : الخير والشر واصلان الى أهلهما لا محالة •
فطوبى لمن جرى وصول الخير اليه وعلى يديه ، والويل لمن
جرى وصول الشر اليه وعلى يديه •

وقال : الإخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء اثنان ، أحدهما
محبية المرء نفسه في أمر معاده ، وتهذيبه إياها في العلم
الصحيح والعمل الصالح • والآخر : مودته لأخيه في دين
الحق ، فإن ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده ، وفي
الآخرة بروحه •

وقال : الغضب سلطان الغضاظة ، والحرص سلطان
الفاقة ، وهما منشأ كل سيئة ، ومفسدا كل جسد ، ومهلكا
كل روح •

وقال : كل شيء يطاق تغييره الا الطباع ، وكل شيء يقدر
على اصلاحه غير الخلق السوء ، وكل شيء يستطاع دفعه
الا القضاء •

وقال : الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش
للبدن ، لأن هذين خلاء النفس ، وهذين خلاء البدن •

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض : لسان
صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة •

وقال : أدهش الناس حجة من شهد على نفسه بدخوض
حبته •

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى ،
فدينه دين الله عز وجل وخصمه شاهد له بفلاح حجته ، ومن
كان دينه الإهلاك والفظاظة والأذى ، فدينه دين الشيطان ،
وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه •

وقال : الملوك تحتمل الأشياء كلها الا ثلاثة : قدح في
الملك ، وإفشاء للسر ، وتعرض للحرمة •

وقال : لا تكن أيها الإنسان كالصبي إذا جاع ضغا (١) ،
ولا كالعبد إذا شبع طغى ولا كالجاهل إذا ملك بغى •

وقال : لاتشيرن على عدو ولا صديق الا بالنصيحة •
فأما الصديق فتتقضى بذلك من واجبه حقه ، وأما العدو فإنه
إذا عرف نصيحته أياه هابك وحسدك • وإن صبح عقله
استنجد منك وراجعك •

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ،
وعلى غريزة الورع الصدق عند الشرة ، وعلى غريزة الحلم
العفو عند الغضب •

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعونتهم أياه ،
وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم •

وقال : لا يستطيع أحد أن يتجاوز الخير والحكمة ، ولا أن
يخلص نفسه من المهايب الا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ،
وولي ، وصديق • فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله
الصالح •

وقال : كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض ،
فانه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها ، وإذا
أضاع أضاع الجميع ، وقدر ذلك نفسه •

وقال : لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله •

وفال : من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبذلوا العدو صديقا ، والجاهل عالما ، والفاجر برا •

وقال : الصالح من خيره خير لكل أحد ، ومن يعد خير كل أحد لنفسه خيرا •

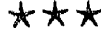
وقال : ليس بحكيم ما لم يعاد الجهل • ولا بنور ما لم يمتق الظلمة • ولا بطيب ما لم يدفع النتن ، ولا بصديق ما لم يدحض الكذب ، ولا بصالح ما لم يخالف الطالح •

ويعدد الشهرستاني طوائف عديدة للصائبة ولا يجعلهم فرقة واحدة ، فمنهم أصحاب الهياكل ، والمقصود الهياكل التي يشيّدونها للكواكب السيارة ، وقد اهتموا اهتماما شديدا بالصور والتماثيل والأيقونات التي ترمز لأرباب بعينها ، أما الله سبحانه فيسمونه رب الأرباب أو اله الآلهة ، ومنهم أصحاب الأشخاص الذين أقاموا الهياكل لكن ليس للكواكب ، وإنما لأشخاص يقربونهم لرب الأرباب •

وقد أوردنا فيما سبق مقتبسات طوالا تنسب لهرمس (هرميس) الحكيم الذي يوقره الصائبة ، الذين لا زالوا - كما سبق القول - يحتلون مكانهم على الخريطة الدينية للعالم ، والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى :

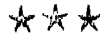
« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) وإشارة القرآن الكريم هذه تدل على أن الصائبة كانوا في وقت من الأوقات من أصحاب المعتقدات الصحيحة ، ثم تلوّثت معتقداتهم بالشرك وعبادة الكواكب وعبادة الأوثان •

ولعلنا نكون قد فتحنا بإيرادنا هذه النصوص في هذا السياق بابا للمهتمين بدراسة العقائد المرتبطة بأهرام مصر ، وفتحنا بابا آخر للربط بين المصادر الإسلامية والمصادر الآثارية في هذا الموضوع المهم ، الذى لا نستطيع أن نبت فيه وإنما امر ذلك لمن هو أدق تخصصا وأعمق نظرة .



ويحدثنا قاموس الكتاب المقدس في مادة هرماس أنها صيغة من صيغ الآله هرميس . وقد ورد كاسم لأحد سكان روما المسيحيين ، أرسل إليه بولس سلامه ، بل لقد نسب إليه الأبناء الأولون نياحة السفر المعروف براءى هرماس الذى يحتوى على رؤى وأمثال ووصايا ٥٠ ونقرأ فى مادة هرمس فى القاموس نفسه أن بولس وبرنابا عندما عملا بعض العجائب (المعجزات) ، ظنهما الناس الإلهين التائهيين هرمس وزفس وفهم الشعب إليهما الذبائع ، إلا أن بولس نهاهم عن ذلك وأكد أنهما بشر مثلهم .

نحن إذن إذا شخصية وردت فى التراث الإسلامى ، ولها وجود فى التراث المسيحى ، كما أنها مجور عقائد الصابئة ، وهى فى الوقت نفسه مرتبطة بالأهرام . أنها بالتأكيد شخصية يمسكن استثمارها والاستفادة منها وتسويقها ، وبت الأفكار حولها ، وجلب المنافع منها ، وكذلك يفعلون .



لم يرد ذكر للأهرام فى التوراة

ويقول لنا البغدادى ما نصه : « ٥٥ » وأعلم أن الأهرام لم أجد لها فى التوراة ذكرا ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها ٥٥ » ، وقد أردنا التحديق من هذا فراجعنا العهد القديم

كله واستعنا بقاموس الكتاب المقدس (١) فكشفنا في حرف الهاء (هرم) وفي حرف الألف (أهرام) ، فلم نجد لأى منهما ذكرا ، فكيف اذن بنوه أو شاركوا في بنائه (٢) ؟

أكل لحوم البشر

« يجب أحذكم أن ياكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »

مرت البشرية في مرحلتها البدائية بأكل لحوم البشر ، بمعنى أن الجماعة البدائية كانت تعكف على جثة المتوفى القريب أو الحبيب أو الغريب ، فتأكله ميتا بعد طبخه أو بدون طبخ ، وفي حالة وفوق الحروب أو المناوشات أكل المنتصرون أعداءهم المهزومين بعد قتلهم أو خنقهم أو شرب دمهم . . . وشاع هذا عند حدوث المجاعات أو قلة الطرائد الحيوانية . لكن الانسان بعد أن تدرج في سلم الرقي والحضارة أدرك بشاعة ذلك ، فاليهودية قد وفرت الانسان لأن الله سبحانه - فيما تقول التوراة - خلقه على مثاله ، والمسيحية جعلت للانسان قيمة عالية ، وكان « لابن الانسان » فيها مكانة وأى مكانة . واحترام الاسلام للانسان وتوقيره له ، مسألة معروفة مطروقة - وكانت مصر مسرحا لهذه الأديان جميعا : شهدت دعوة موسى ، وسرفت بوصول المسيح وأمه إليها ، وكان لها في الاسلام دور وأى دور ، كما تدرجت مصر في سلم الحضارة درجات عالية حتى قبل الأديان السماوية ، ومن هنا وما ذكره البغدادي عن يسوع أكل لحوم البشر أثناء المجاعة التي حلت بمصر في القرنين الأخيرين من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد - مسألة في حاجة الى تفسير ، كما أنها ذات دلالات على التركيب السكاني في مصر في هذه الفترة .

(١) هيئة تحريره : د . بطرس عبد الملك ، د . جون الكسادير
طهسون ، وإبراهيم حار .

(٢) أشار البغدادي لخلو النوراه من ذكر الأهرام في آخر الفصل الخامس ، المعالة الأولى .

لقد قدم لنا البغدادي صورة بشعة عن امرأة تاكل
فخذ زوجها ميتا ، وآخرين يتنازعون وليسدا « لجيما » أى
سمينا ، وعن جماعة يطبخون الاعضاء الادمية ، ويحدثنا
أن عقاب من كان يفعل ذلك هو الحرق . وبذلك يشوى
فيتجمع على جثته المشوية خلق ياكلونه ، وبذلك يصبح الاكل
ماكولا . . الخ . وفى الوقت نفسه ، فان البغدادي يقدم لنا
اشارات تعيننا على فهم ذلك ، فهو يذكر أن امرأة « تجسرية »
فعلت ذلك ، وقبائل التجريين أو التجرانين Tigre
هى قبائل سوداء من أطراف الحبشة . . ولم يقم البغدادي
بدور الأنثروبولوجي فيعين لنا أعراق من فعلوا ذلك ، ولو أنه
فعل لأراحنا وفسر لنا كثيرا مما غمض علينا .

وفى سياق آخر يحدثنا عن امرأة من « الأجنلا » ذات
مال ويسار كان زوجها غائبا فى الخدمة ، ويتضح من الاسم
« اجنلا » أيضا أن المرأة ذات اصول تعود بها الى شرق
أفريقيا أو وسطها ، ولا يبعد أن تكون من قبائل الجلا
Tala ، وذكر البغدادي أن زوجها كان غائبا فى
الخدمة تعنى أنه كان من حرس الحدود مثلا أو من العاملين
فى الخدمات المساعدة للخدمة . . الخ .

واذا علمنا أن هذه الجماعة الممسحوبة بالأوبوسة وغم
فناعتها (لدرجة أنها تركت قرى كاملة خالية من أى بشر)
ثم نكن هى الأولى من نوعها فى التاريخ الاسلامى على الأقل
كما أسرنا فى موضع آخر من هذه الدراسة ، لاتضح لنا أن
مصر كانت فى وضع يسمح لها باستقبال هجرات من الجنوب ،
سواء على شكل نسيل ارادى سلمى أو على شكل استتلاب
رفيق . . وقد أحضر هؤلاء معهم تراث الثقافة البدائية بما فى
ذلك أكل لحم البشر ، لكن هذا على أية حال سرعان ما تلاشى
بفعل التأثيرات الحضارية والدينية المصرية العريقة ، ومع
هذا فقد ظل هذا مخزونا فى اللغة والتعبيرات ، فالحديث عن
إلاد « نمم » ظل يتردد فترة طويلة على لسان الأهلىات
والجدات ، والتعابيرات من نساء سوداوات لهن ذبول ظل
يتكرر فى بعض البيئات ، وبعض الاخوة فى السودان فى بعض
البيئات إذا أثرت سخطه ، هددك بأن ياكلك « هاكلك والله ،

هاكلك » ولا شك أن أحد المسؤولين الكبار سمع من جدته أو أمه - وكانت من وسط أفريقيا - أنه إن ارتكب خطأ فإنها « ستفرمه » وتجعله « كفتة » ، ومن هنا فقد استخدم هذا المسؤول التعبير نفسه في إحدى المناسبات ، وهو تعبير مخزن يعود إلى قبائل وسط أفريقيا .

وقد ظل انكار وجود ظاهرة « اكل لحوم البشر » بين القبايل الأفريقية مسالة بدت ضرورية خاصة في مرحلة التحرر الأفريقي ، لكن الحقيقة أن هذه الظاهرة كانت قائمة لتشير إلى مرحلة مرت بها البشرية ، وأنها - أي هذه الظاهرة - بدأت تتلاشى بويديا رويدا . إلى أن انتهت . وقد حدثنا الرحالة فارتينا (الحاج يونس) عن هذه الظاهرة نفسها في بعض مناطق جنوب شرق آسيا ، وقد تهمت الرحلة في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر للميلاد .

ويحدثنا البغدادي عن ظاهرة بشعة أخرى شاعت أثناء هذه الشدة أو المجاعة الكبرى ، وهي بيع الأحرار ، ويذكر أن سفن الأجانب كانت تقترب من السواحل المصرية لتشتري « الأحرار » بالنسيء القليل ، وعرضت امرأة بائسة ابنتها المجهيلة على البغدادي ليشتريها فافتأها بأن ذلك « حرام » ، فقالت له اذن خذها « هدية » . ويبعد أن الرجل قد قبل « الهدية » ولم يدفع شيئا ، لأنه لو دفع لكان ذلك « حراما » وأم يذكر لنا البغدادي أنه رفض الهدية .

وفي هذه الظروف كثر القوادون ، وحقق كثيرون ثراء لا يدري أحد مصدره .



ولم يكن غريبا أن الفصل الخاص بالنبات وهو الفصل الثاني من المقالة الأولى ، من أكثر فصول الكتاب تفصيلا وتحليلا ، فعبد اللطيف البغدادي طبيب في المقام الأول ، وكانت معرفة الطب حتمية في عصر البغدادي (القرنين : ٦ و ٧ هـ ، ١٢ و ١٣ م) مرتبطة بعلم الأقرباذين أو علم الصيدلة ، وهذا العلم مرتبط بدوره بالنبات الذي منه معظم الدواء . وقد وصف البغدادي معظم ما رآه من نبات وصفا مباشرا فحدثنا

عن البذور والجذور والسوق والأوراق ، وما إذا كان نباتا يؤكل أم أنه للتداوى أم أنه للأكل والتداوى معا ، وحدثنا عما يستخدم منه للزينة •

لكن البغدادى قدم لنا أيضا معلومات عن النبات ، نقلها من المصادر العربية أو اليونانية أو اليهودية وقد نقل عن كتاب (المستغنى) وهو كتاب فى الأدوية المفردة لمؤلف عرف بالاسرائيل ، وهو مؤلف يهودى اهتم بالطب والصيدلة والنبات ، وقد استعمل عليه محمد بن محمد الأندلسى الشهير بالادريسي (١) بالإضافة الى مصادر أخرى فى كتابه : (الجامع لصفات أشجار النبات) ، فقد أشار الادريسي لاهونيين الآتى ذكرهم ، وكلهم حقق سمرة فى هذا المجال ، وأشار الى بعضهم عبد اللطيف البغدادى فى أكثر من موضع :

- كتاب ستيغن فى المفردات (مفردات النبات) •
- كتاب جالينوس فى المفردات •
- كتاب الأدوية المفردة لحنين بن اسحق •
- الفائدة لابن سيرامون •
- النبات لابن جليل •
- كتاب الأدوية المفردة لخلف بن عباس الزهراوى •
- كتاب المستغنى للاسرائيل •

وليس أدل على أهمية اشارات البغدادى للنباتات المختلفة من أن ابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ قد اعتمد عليه بالإضافة لاعتماده على المصادر اليونانية ، وكتاب ابن البيطار مشهور معروف يعد علامة بارزة فى تاريخ علم النبات وعلم الصيدلة وعلم الأعذية على سواء • وقد اعتمد

(١) ولد بسبته ٤٩٣هـ/١٠٩٩م • تلقى العلم فى قرطبة واستقر زمانا فى بلاط الملك النورمانى روجر الثانى فى بالرمو بصقلية ، ولذلك سعى بالصقل • من كتبه أيضا : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وكتاب « المسالك والممالك » •

ابن البيطار (١) - كما اعتمد البغدادي من قبله - على المشاهدة والملاحظة والتجربة بالإضافة للنقل والسماع *

وقد سمع عبد اللطيف البغدادي من بعض أهل البلاد أحاديث عن النباتات لم يجد هناك شك في خطئها ومع ذلك ، فقد خضعت مثل هذه المعلومات الخطأنة لتحليلات عميقة ، فبعد أن شرح البغدادي لنا شيئا كثيرا عن نبات القلقاس ، وعن النخيل ذكر لنا أن شجرة الموز هي عوان بين القلقاس والنخيل ، وأن بعض الناس أخبروه أنه إذا وضع نواة البلح في قلب قلفاسه وزرعها أنبتت موزا ، وهذا بالتأكيد خطأ لا جدال فيه ، وكان ينبغي أن يتوثق منه البغدادي ، وقد استبعد الرجل ذلك بالفعل ، لكنه راح يعتقد مقارنة بين شجرة الموز وبين النخلة وشجرة القلقاس معا ، فخلص الى أن شجرة الموز بالفعل عوان بين الشجرتين ، وكان تحليله ممتعا *

ومن استنتاجاته الخطأنة أيضا أن الزنجبيل هو القلقاس ، لكنه في اليمن يكون زنجبيلًا خرازة الجو ، وفي مصر قلفاس لطوبة الجو ، وذكر أن القلقاس إذا لم يطبخ كان فيه حرارة كحرازة الزنجبيل يحس المرء لسمها في الحلق * وقد اعتمدنا في تحقيق أسماء النباتات الواردة في هذا الفصل على جملة مراجع منها :

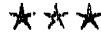
- معجم المصطلحات العلمية والفنية (مدخله باللغة العربية) الذي أعده يوسف خياط وأحدثه بطبعته المعدلة لللسان العرب لابن منظور (أعاد ترتيبه وفقا لأوائل الكلمات) *

- معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية *

- راجعنا في بعض المواد مثل (قرظ) و (عفص) تذكرة داود الأنطاكي (مرتب هجائيا) ، وهو « تذكرة أولى

(١) عبد الله بن أحمد بن البيطار صاحب كتاب (الجامع لفردات الأدوية والأعذية) عشاب معروف ، أتدلسي مالمقى ، توفي سنة ٦٤٦ هـ وقد ألف كتابه هذا ، كما ألف من الملك صالح نجم الدين أيوب ، مرتبا حسب حروف المعجم *

الألباب الجامع للعجب العجائب « طبعة الظاهرة - مكتبة
التقنية الدينية • جزءان في مجلد واحد وبآخرة ذيل التذكرة
لأحد تلاميذ المؤلف • لكننا لم ننقل في تعليقاتنا كل ما ورد
في هذه التذكرة واكتفينا بما هو متفق مع معجمي الشهابي
وخياط ، ومن أراد مزيدا من التفاصيل فعليه مراجعته •



عن عالم الحيوان في مصر

ويتعرض البغدادي في الفصل الثالث من المقالة
الأولى لحيوانات مصر ، وهو لا يقدم في هذا الفصل عرضا
مفصلا (الى حد ما) كما فعل في فصله المتعلق بالنبات ،
وانما هو يورد قليلا من الامثلة ، على انه افاض في الحديث
عن الترفيد - اى عملية تفقيس الكتاكيت في المراقط بطرائق
صناعية مختلفة - عن ترك البيض تحت الدجاج حتى يفقس •
وهي عملية - فيما يبدو - اختص بها المصريون ، وظلت تثير
عجب الرحالة حتى القرن السابع عشر للميلاد : فنحن نجد
الرحالة البريقلاني جوزيف بيتس الذي تسمى باسم الحاج
يوسف يذكر لنا :

« • • وللمصريين طريقة طريفة في تفقيس الكتاكيت ،
وقد يظن بعض من يقرأ كلامي أنني أروى خرافة ، ولكنني أؤكد
أنني رأيت ذلك بنفسي وإن ما أرويه حقيقى • فلدى المصرى
مكان محفور تحت الأرض لا يبعد في شكله عن القرن وقد
فرش قاعه بالقش ، يضع فيه بضعة آلاف من البيض متراكمة
بعضها الى جوار بعضها الآخر وفوق بعضها ، ويتركها
لتفقس بفعل حرارة الشمس دون الاستعانة بدفء دجاجات ،
أو دفء أى كائن منتج آخر ، فاذا ما فقس البيض وظهرت
الكتاكيت يبيعونها للفقراء بالكيل ••• » (١) • لكن البغدادي

(١) بيتس : جوزيف ، رحله الى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الالف كتاب الثانى -

كان أكثر دقة من بيتس في وصف هذه المراكب ، فراح يصفها بالتفصيل مؤكدا أن تصميمها من الداخل يحاكي شكل الدجاجة .

الحمار المصري الأصيل

ويتعرض البغدادي في عجلة وفي جهل قصار لخيول مصر . ويستتوفنا ما أورده عن الحمار فهو يقول ، ان حمير مصر فارغة جدا وتركب بالسروج وقد تسبق في جريها الخيول والبغال النفيسة .

ولعل لذلك سببا تاريخيا قد يكون من المفيد ذكره ، ذلك أنه في بعض مراحل التاريخ جرى تحريم ركوب الخيل على غير المسلمين ، كما جرى تحريم البسة معينة ، ولم يكن ذلك في الواقع إلا لأسباب متعلقة بالأمن الداخلي في فترة كان من الضروري التمييز فيها بين العناصر العسكرية والعناصر المدنية . وبصرف النظر عن تفسير ذلك ، فالهم هنا أن نذكر أن هذا الخطر دفع اليهود والنصارى إلى الاهتمام اهتماما شديدا بالحمير ، فاصبح الحمار الذي يركبه اليهودي ذو الحيشة أو النصراني ذو الحيشة ، قويا متينا معتنى به ربما فاق البغل أو بعضا من الخيل . وفي ظل هذه الظروف ارتفع ثمن بعض الحمير ليصل الواحد منها إلى أربعين دينارا . وهكذا لم يستفد من هذه التفرقة إلا الحمار . ولعل هذه الظروف التاريخية تفسر لنا انتشار هذا الصنف من الحيوان في مصر وكثرة توالده . هذا بطبيعة الحال بلاضافة لأسباب أخرى ربما تكون أهم ، وهو الحاجة الشديدة إليه في العمل الزراعي .

قاعد ينش !!

وتفسر لنا هذه الرحلة وغيرها من الرحلات ، كثيرا من العبارات التي لازالت شائعة رغم أننا لم نعلم ظروفها التاريخية التي نشأت بها . فمن التعبيرات الشائعة بين

المصريين في وصف الشخص الذي لا عهد له (أنه قاعد ينش) وربط العامة بين هذا التعبير « ينش » والذباب أى ابعاده ، بينما لا علاقة فى الواقع بين النش والذباب فالتعبير المناسب لابعاد الذباب هو (دب الذباب) ، بل لقد قيل ان الذباب ما سمى ذبابا الا لانه كلما ذب أب ، أى كلما ذب أى أبعد ، أب أى رجح (ذب - بضمهم الذال وتشديد الباء وفتحها) * نعود الى الأصل التاريخي الذى يوضحه لنا البغدادي لتعبير (قاعد ينش) * نرى سمعان العرب لابن منظور تسميش المياه جفافها * سى الغدير او الجوز او النهر ينش نشا وتنشيشا أى يابس ماءه ونضب ، وقيل نش الماء على وجه الأرض أى نشف وجف ، وقد استخدم البغدادي تعبير نش النيل أى جف وذلك فى سنوات الجفاف والسمنة ، ولا شك أنه استخدم هنا التعبير الشائع على ألسن المصريين الذين حدثوه عن أن النيل قد نش ، وشاهد هو بنفسه تسميش النيل * واذا نش النيل نش المصريون ، فالمصريون فلاحون زراع ، وماذا يفعل الفلاح اذا لم يجد ماء أو اذا نش الماء ؟ انه هو أيضا يجف أى ينش أى يصبح غير قادر على العمل * * وانتهت ظروف جفاف النيل وعموم المجاعات لا أعادها الله بعد خزن المياه عن طريق السدود والفناظر والسد العالي ، ومع هذا بقى التعبير كامنا فى ضمير الشعب يتم استخدامه دون معرفة ظروفه التاريخية ، ومن ذلك أيضا تعبير (قاعد يقشر بصل) أو فلان (يقشر البصل) للدلالة أيضا على البطالة وقلة العمل والضيق ، وهذا التعبير أيضا مرتبط بآيام جفاف النيل ، أو تسميش النيل ، ذلك أن المصريين الذين أصابهم الضر وعدموا المياه والطعام كانوا يهرولون الى قاع النيل الجاف حيث بقايا المياه ، وحيث نبتت الحشائش والابصال على بقايا مياه القاع ، فيعهد المصري الى بعض هذه الابصال (النباتات البصلية أى ذات الجذور القابلة لأن تؤكل) فيقشرها ويأكلها ، فاذا افتقد واحد من المصريين صديقه أو قريبه وسأل عنه قيل له : « قاعد - فى قاع النهر - يقشر بصل » ، ولم يعد المصريون يقشرون بصلا فآيامهم غدت طيبة - أدام الله طيبها - ومع هذا ظل التعبير مخزونا فى اللغة الشعبية ، لتذكرنا بآيام جفاف النيل *

لماذا اختفى التمساح المصري ؟

ويحدثنا البغدادي (القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) عن كثرة التماسيح في النيل خاصة في المجرى الرئيسي في الصعيد ، ويذكر أن نسلها « كالود كثرة » وانها تكون « صغارا وكبارا » ، وأن أكبر مئها « ينيف على عشرين ذراع طولاً » . وينقل البغدادي عن أرسطو قوله أن كبد التمساح « تهيج التمتع » أي تزيد من الطلاقة الجنسية لأرجال ، وأضاف البغدادي ناسبا لأرسطو قوله أن « كليتي التمساح ودهنه » ابلى في تحقيق هذا الغرض . ويبدو أن شيئا من هذه الفكرة لا زال قائما إلى الآن ، ذلك أن واحدا من عمال حديقة الحيوان تفرس في وجهي المتغصن وخيتي - بينما كنت أتنزه مع أولادي في الحديقة ، وعرض علي هامسا أن يبيعهني شيئا قدمه لي على أنه دهن تمساح . فلما سألته عن فائدته ، نظر إلى بعقي ، فلما لم أفهم اغمض عينا وفتح أخرى ، وتركني ورحل . أين ذهبت كل هذه التماسيح الكثير تولدها . . لاشك أن المصريين أسرفوا في أكلها ، خاصة ونحن نقرأ في تذكرة داود الانطاكي (١١ هـ / ١٧ م) ما يؤكد هذه الفكرة ويقول الانطاكي أن أكله يحرك الباء - المعنى مفهوم . وفيما يلي نص ما قاله :

« . . [تمساح] حيوان مائي في الأصل لكنه يعيش في البر وهو من ذوات الأربع يقال أنه اغلظ الحيوانات البحرية جلدا ويبيض في البر فيكون منه السقنقور (١) ، وصغاره تعرف بالودول قيل أنه من خواص نيل مصر وأنه يحرك فكه الأعلى دون سائر الحيوانات وأنه لا يروث وإنما يدخل في جوفه طائر فيأكل ما فيه ويخرج فإن وجد فمه مطبوعا نثره بعظمة في رأسه حتى يفتح فاه وهو مفترس جبان قليل الجري إلا إذا كسر ولا يأخذ في عمق الماء ويحب الغيلة وهو حار في آخر الثانية يابس في أول الثالثة أكله يحرك الباء (٢) ويخصب البدن ويقطع القولنج وسنحه يحلل الأوجاع الباردة من المفاصل والظهر شربا وطلاء

(١) هذا خطأ لا شك فيه فالسقنقور غير التمساح .

(٢) أي الطلاقة الجنسية .

ويفتح الصمم وإن قدم والصداع والشقيقة ولو سحوطا وزبله
يجلو البياض مجرب والكلف والبهق وكذا دمه مع الاملاج .
ومن خواص شحمه اذهاب الربيع طلاء وكبدته اذهاب الكهون
بخورا وعينه ايقاف اليبدام تعليقا اذا ولعت وهو حي قيل
ووجع العينين . ومن خواص معشومضه أن يشبعه الكهل حيث
كان حتى يدخل في الجرح فيقتل ويخلص من ذلك البخور حوله
بالكهون والنظران والتمساح عسر النهم ردى الغداء ويصلحه
الدارصيني ومعجون الكمون * * « (١) »

وقد أشار القاضي التيفاشي الذي عمل فاضليا في ظل
الدولة الحفصية - كثيرا الى لحم التمساح وما يسببه من
قوة وفجولة لمعاطيه ، ولعل هذا هو السبب في رحيل هذا
القاضي الى مصر التي ألف فيها كتابه المشهور (رجوع الشيخ
الى صباه في القوة على الباه) (٢) *

البغدادى والوصف الجغرافى وتحديد المواقع الفلكية

ربما يجد القارئ غير المتخصص عجباً فى أن البغدادى
ابن القرن السادس الهجرى / الثانى عشر للميلاد ، يحدثنا عن
الموقع الفلكى لمصر فيذكر أن حدها الجنوبى هو ٢٢° درجة ،
وأن منابع النيل تنبع الى جنوب خط الاستواء ، والواقع أن
الباحث الشهير كرانسوفسكى فى كتابه (تاريخ الأدب

(١) تذكرة داود الاطائى - حرف الباء - مادة تمساح .

(٢) التيفاشى المولى ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م هو أحمد بن يوسف التيفاشى
الذى ولد فى تيفاش من قرى نفصة المدينة التونسية المسهورة الى الجنوب
العربى ، سافر الى القاهرة ومنها الى دمشق لكنه عاد الى القاهرة - ربما
حبا فى لحم التمساح - مات بمصر ودفن بمقبرة باب النصر ، ومن كتبه
ايضا : اذهار الافكار فى جواهر الأحجار (حقه ونشره د . محمد يوسف
حسن ومحمود خفاجى) *

الجغرافي العربي (١) ، يقطع لنا بأن العرب أضسافوا لعلم
الجغرافيا منذ أقدم الأزمان والعهود . حيث إن الجغرافيين
العرب اعتمدوا في البداية على كتاب الجغرافيا لبطليموس
الاسكندري ثم - بشكل أقل - على كتاب هاريتوس الهنودى ،
لكن منذ عهد المأمون حلت الجغرافيا العربية الخالصة محل
الجغرافيا اليونانية .

مكانة البغدادي بين الرحالة العرب

يستحق عبد اللطيف البغدادي أن يفسرد له الباحثون
قصدا مستقلا في بحوثهم عن أدب الرحلة عند العرب
أو بحوثهم عن العرب والجغرافيا ، كما أن دراسة مفصلة عن
العلوم عند العرب تتلو من ذكر عبد اللطيف البغدادي هي -
يعينا - دراسة غير مكتملة .

إن معظم الرحالة المسلمين أتوا من أطراف العالم
العربي ، سواء الأطراف الشرقية أم الغربية ، فمن الأطراف
الشرقية نسمع عن ناصري حشرو الفارسي (توفي ٥٤٣ هـ /
١٠٦٠) الذي سيجل رحلته في كتابه (سفرنامه) (٢) ،
ونسمع أيضا بالرحالة الهروي المولود في هراه ، الذي أقام
بالاسكندرية سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

وقد رُز في رحلته على مواضع الزيارة الدينية ،
ويقصد بها قبور الاولياء والصالحين (٣) .

أما الرحالة المنطلقون من الطرف الغربي للعالم الاسلامي ،
منهم ابن جبير الذي انطلق من غرناطة ٥٨٧ هـ / ١١٨٣ م
ووصل الاسكندرية ومنها الى قوص وعيذاب فيجده ، وبعد
اداء الحج اتجه الى العراق ثم تركه للشام واتجه الى صقلية
وعاد الى غرناطة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، لكنه ارتحل بعد ذلك
للمشرق مرتين ومات بالاسكندرية ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

(١) ترجمة رامي المرحم السوداني صلاح الدين عثمان هاشم .
(٢) ترجمه يحيى الخشاب ونشرته مطبعة لجنة التاليف والترجمة
والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
(٣) الهروي ، أبو الحسن على : الاشارات الى معرفة الزيارات .
دمشق ، المعجم الفرنسي ، ١٩٥٣ .

ونسلمه أيضا عن ابن سعيد الأندلسي الذي وصل
الاسكندرية سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وتنفق بين مدين الشمام
والعراق *

وهناك الرحالة العربي المندوب إلى عباد الأدار وانطلق
صوب المشرق من السوس الأقصى حيث استنقرت أسرته
يومئذ ، وبدأ رحلته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م فزار الشمال
الأفريقي كله ووصل إلى الاسكندرية ثم أدى فريضة الحج ،
وعاد إلى بلاده *

وهناك شيخ الرحالة ابن بطوطة ، الذي قضى
ثمانى وعشرين سنة من حياته ينتقل بين أجزاء العالم * لقد
انطلق من طنجة وبعد أن أدى فريضة الحج أتبعه إلى فارس
وتشرق أفريقيا ، وزار انزم وحوض الفولجا والقسطنطينية ،
وزار في رحلة أخرى خوارزم وبخارى وكردستان وبلاد الأفغان
والهند والصين ، * * وسجل ابن بطوطة مشاهداته في
« تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » *

ومن هذا العرض نلاحظ أن معظم الرحالة المسلمين
قدموا من جناح العالم الاسلامى الشرقى أو جناحه الغربى ،
وكان هدفهم الأول ودافعهم الأساسى هو أداء فريضة الحج ،
ونظرا لبعده بلادهم فقد مروا بمناطق كثيرة وشعوب كثيرة ،
وهم فى طريقهم للديار المصرية ، فزادهم هذا شغفا بالرحلة
حتى ان معظمهم بعد أن أدى فريضة الحج ، شغف بالترحال ،
فقام برحلة أو أكثر من رحلة بقصد الرحلة نفسها أو شغفا
بالترحال ذاته هذه المرة ، وهذا أوضح ما يكون عند ابن بطوطة
فان كانت رحلته الأولى قد قصص بها أداء فريضة الحج ،
فلانك أن رحلته الأخرى لم يكن يقصد بها الا تحصيل فوائد
السفر من علم ومعاينة وتعرف * * الخ *

أما الرحالة الذين انطلقوا من قلب العالم الاسلامى ذاته
فهم أقل عددا ، وربما أقل شهرة ومن هؤلاء ابن فضلان
الذى انطلق من بغداد فى عهد الخليفة العباسى المقتدر بالله
(٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) واتجه إلى بلاد الصقالبة بأمر الخليفة
ليكون رئيسا للوفد المرسل لملك هذه البلاد ، ليعلم شسعيه

— بناء على طلبه — حقائق الإسلام * كان ابن فقه سسلان اذن في مهمة رسمية ، لكن قلبه اليقظ وعقله الواعي جعله يتأمل ويفقه ما يشاهد ، فكانت رحلته المندروفة باسم (رسالة ابن فضلان) (١) *

ورحلتنا عبد اللطيف البغدادي هو ايضا من الرحالة الذين انطلقوا من قلب العالم الاسلامي لا من أطرافه ، فقد ولد في بغداد . وعمل في خدمة صلاح الدين الأيوبي في الشام وخدمة أولاده في مصر ، وقد رتبوا له مائة دينار في الشهر لينفرغ للعلم *

ونحن نلاحظ أن الرحالة الذين انطلقوا من وسط العالم الاسلامي لم يقوموا برحلات طويلة ، وانما كانوا يزورون بلادا معينة يتوجهون اليها ، فلم يتعد ابن فضلان بلاد الصقالبة ، ولم يتعد البغدادي مصر والشام والحجاز *

واذا رحنسا نبحث عن مكان البغدادي بين الرحالة المسلمين من ناحية اسلوب المعالجة ومجال الاهتمام ، وجدنا أن البغدادي حري به أن نطلق عليه « الرحالة » العالم ، وهو بالفعل ما أطلقه عليه بعض الباحثين (٢) ونحن لانعدم ما يؤكد ذلك في كثير مما أورده في رحلته هذه التي بين أيدينا ، فقد انتهز فرصة كثرة البعثات التي ملأت التيل والطرق والخللاء في أثناء السيادة أو المجاعة التي آلت بمصر ، وراح يدرس النظام البشرية عظمة عظيمة ويفارن تركيب الجسم البشري بما ورد في كتب الأطباء اليونان والعرب ، ليخلص بنتائج مؤداها أن بعض هؤلاء الأطباء قد أخطأوا ، فالمعينة والمشاهدة ودراسة الواقع أقوى من كل نقولات ، مهما كان مصدر هذه النقولات * وعندما يدرس البغدادي مياه النيل ويسمونه ما فيه من عفن بسبب عدم جريان الماء لانخفاض مياه النيل — يقرر

(١) نشرها المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٩ بعنوان (رسالة

ابن فضلان) *

(٢) حذرم نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ،

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٢ *

أن تسخين هذا الماء أو غليه لا يخلصه مما فيه من ضرر لغلبة
العفن على الماء ، * وهو في هذه الحالة يفضل مياه الآبار .

ومن أقوى الفصول العلمية في كتابه هذا ما تعلق
بشبهات مصر ، ففيه تفاصيل طبية ، كما يبين قدرة كبيرة على
التأمل . كما كتب فعسلاً طبياً عن النجاسة الحيوانية في مصر ،
ومن المهم أن نذكر أن معلومات البغدادى عن النجس والسمات
والتشريح والذئب ليست معلومات عرضية ينصيدها القارىء
من بين فيض من الكتابات نرى مجالات أخرى ، أو يصيبها من
بين استطرادات لا حصر لها ، وإنما نجد البغدادى قد رتبها
وجعل لها طبعاً لا يخلو منها يؤكد منهجه العلمى المؤكد ،
ولا غرو فهو طبيب مشهور أسير له بالبنان في الشام ومصر
على سواء . والطبيب في هذا العصر كان باسيرة عالماً
بالأدوية ، أو أنه على نحو أو آخر كان غريباً أو ملماً بالأغشاب
المفيدة للعلاج .

وقد اختلف مؤرخو العلوم منذ العرب بالمنهج العلمى
لعدد من العلماء ، من بينهم عبد اللطيف البغدادى ، فيحدثنا
جلال مظهر (١) عن ذلك :

« .. ويقدم لنا عبد اللطيف البغدادى فكرة جسيمة
واضحة عن الأسلوب العلمى الذى اتبعه العرب لإيجاد أدلة
يؤيدون بها ما يقرأونه في الكتب . وهذه الطريقة تبين الى مدى
كبير استقلالهم في الرأى ووسائلهم العلمية الصحيحة وعدم
خضوعهم أعمسالا لحجج جالينوس أو غيره . وكان
عبد اللطيف البغدادى أول من أفصح بجلاء عن أهمية المشاهدة
ودقة التجري أولاً ، حتى فيما قال جالينوس .

وفي أقوال عبد اللطيف البغدادى عن التشريح ما يغنى
عن هذا وما يشهد لنا بكل جلاء أنه كان أول من اتقن جالينوس
نقدا صريحا ، وأظهر خطاه في التشريح معتددا على المشاهدة

(١) حضارة الاسلام وأثرها في الترقى العالمى ، ص ٣٤٥-٣٤٦ .

والله حص • نال : « ومن عييب ما شاهدناه أن جماعة ممن يتعاطون الطب وصلوا الى كتاب في التشريح فكان يعمس انهمهم وفهمهم فيقول عن العييب ، فآخبرنا أن في المقس نلا عليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرائنا نلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه اقل من الموتى به ، تحدث ما يظهر منهم للعيبان بعشرين ألفا فصاعدا ، وهم على طبقات في قرب العهد وبعده • فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصائها وتناسيبها وأوضاعها ما افادنا علما لا نستفيد من الكتب ، اما انها سكنت عنها ، أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه ، أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس أقوى في الدلالة من السمع ، دان جالينوس وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكى ، فان الحس أصدق منه •

فمن ذلك عظم الفك الأسفل ، فان الكل قد اجمعوا على أنه عظمان مفصل رقيق عند الفك • وقولنا الكل انه نعى به هاهنا جالينوس وحده ، فانه الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا وأبقى لم يخرج الى لسان العرب •

والذى شاهدناه من حال هذا العضو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا ، واعتبرنا ما شاء الله من المرات في اشخاص كثيرة تزيد على ألفى جهة باصناف من الاعتبار فلم نجد الا عظما واحدا من كل ما شاهدناه منه وحكيانه • وكذلك في أشياء أخرى غير هذه • ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكى فيها ما شاهدناه وما علمناه ، ثم اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ، ليس فيه مفصل ولا درز ، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق ، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع احواله الا قطعة واحدة •

اليس هذا هو الاسلوب العلمى الصحيح ؟

مؤلفات البغدادى الأخرى والمراجع التى تناولته

وصفه الذين ترجموا له بأنه من فلاسفة الاسلام ومن
المكثرين فى التصنيف فى الحكمة وعلم النفس والطب
والتاريخ والبلدان والأدب ، ومن كتبه :

- قوائين البلاغة *
- الانصاف بين ابن برى وابن الخشاب فى كلامهما عن
المقامات *
- الجامع الكبير فى المنطق الطبيعى والالهى *
- الكلمة فى الربوبية *
- الحكمة الكلامية *
- تهذيب كلام افلاطون *
- القياس
- السماع الطبيعى *
- غريب الحديث *
- المنحنى الجلى فى الحساب *
- التجريد فى اللغة *
- شرح احاديث ابن ماجه المتعلقة بالطب *
- مختصر الحيوان للجاحظ *
- كتاب فى النبات *
- رسالة فى النفس

- رسالة في العلم الالهي *
- رسالة في الماء *
- حقيقة البواء والغذاء *
- رسالة في الحواس *
- رسالة في النفس والصوت والكلام *
- المدينة الفاضلة *
- اللغات وكيفية تولدها *
- القدر *
- وغيرها *

وترجمت له كل كتب التراجم التي تغطي فترة وفاته
 كابن شاکر الکتبی فی کتاب (قوات الوفیات) والسبکی فی
 (بغیة الوعاء) ، وابن أبی أصیبة فی (طبقات الأطباء) . الخ
 ومن المراجع الحديثة التي كتبها أطباء كتاب (لمحات من التراث
 الطبّي العربي) (١) * وقد آثرنا أن نورد فی هذا الكتاب
 ترجمة كاملة للبغدادي من كتاب ابن أبی أصیبة یجدها
 القارئ بعد هذه الدراسة مباشرة *

(١) تأليف د. مرسى محمد عرب (استاذ الامراض الباطنية بدلت
 الاسكندرية) الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٥ * وقد خصص الفصل
 الخامس لاضافات العرب لفروع الطب المختلفة *

[من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة]

هو الشيخ الامام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد ويعرف بابن اللباد موصلى الأصل بغدادى المولد * كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف وكان متميزا فى النحو واللغة العربية عارفا بعلم الكلام والطب * وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها ، وكان يتردد اليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه * وكان والده قد شغله بسماع الحديث فى صباه من جماعة ، منهم ابن الفتح محمد بن عبد الباقي المعروف بابن البطى وأبو زرعة طاهر بن محمد المقدسى وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل وغيرهم * وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشغلا بعلم الحديث بارعا فى علوم القرآن والقراءات مجيدا فى المذهب والخلاف والأصولين وكان متطرفا من العلوم العقلية * وكان سليمان عم الشيخ موفق الدين فقيها مجيدا وكان الشيخ موفق الدين عبد الله كثير الاشتغال لا يخلى وقتا من أوقاته من النظر فى الكتب والتصنيف والكتابة * والذى وجدته من خطه أشياء كثيرة جدا ، بحيث أنه كتب من مصنفاته نسخا متعددة ، وكذلك أيضا

كتب كتباً كثيرة من تصانيف القدماء وكان صديقاً لجدي وبينهما صحبة أكيدة بالديار المصرية لما كانا بها . وكان أبى وعمى يشتغلان عليه بعلم الأدب واشتغل عليه عمى أيضاً بكتب أرسطوطاليس . وكان الشيخ موفق الدين كثير العناية بها والفهم لمعانيها وأتى الى دمشق من الديار المصرية وأقام بها مدة وكثر انتفاع الناس بعلمه ورأيت أنه لما كان مقيماً بدمشق فى آخر مرة أتى إليها وهو شيخ نحيف الجسم ربيع القامة حسن الكلام جيد العبارة وكانت مسطرته أبلغ من لفظه وكان رحمه الله ربما تجاوز فى الكلام لكثرة ما يرى فى نفسه ، وكان يستنقص الفضلاء الذين فى زمانه وكثيراً من المتقدمين ، وكان وقوعه كثيراً جداً فى علماء العجم ومصنفاتهم ، وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه .

(ونقلت) من خطه فى سيرته التى ألفها ما هذا مثاله قال : انى ولدت بدار لجدي فى درب الفالوذج فى سنة سبع وخمسين وخمسائة وتربيت فى حجر الشيخ أبى النجيب لا أعرف اللعب واللهو وأكثر زمانى مصروف فى سماع الحديث ، وأخذت لى اجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر . وقال لى والدى يوماً قد أسمعك جميع عوالى بغداد وألحقتك فى الرواية بالشيوخ اللسان . وكنت فى أثناء ذلك أتعلم الخط وأحفظ القرآن والفصيح والمقامات وديوان المتنبى ونحو ذلك ومختصراً فى الفقه ومختصراً فى النحو فلما ترعرعت حملنى والدى الى كمال الدين عبد الرحمن الأنبارى ، وكان يومئذ شيخ بغداد وله بوالدى صحبة قديمة أيام التفقه بالنظامية (١) فقرأت عليه خطبة الفصيح فهذر كلاماً كثيراً متتابعاً لم أفهم منه شيئاً ؛ لكن التلاميذ حوله

يعجبون منه ، تم قال : أنا أجفو عن تعليم الصبيان أحمله الى تلميذى الوجيه الواسطى يقرأ عليه فاذا توسطت حاله قرا على . وكان الوجيه عند بعض أولاد رئيس الرؤساء وكان رجلا أعمى من أهل الثروة والمروءة فأخذنى بكلتا يديه ، وجعل يعلمنى من أول النهار الى آخره بوجوه كثيرة من التلطف فكنت أحضر حلقتة بمسجد الطفرية ويجعل جميع الشروح لى ويخاطبنى بها وفى آخر الامر أقرأ درسى ويخصنى بشرحه ، ثم يخرج من المسجد فيذاكرنى فى الطريق . فاذا بلغنا منزله أخرج الكتب التى يشتغل بها مع نفسه فاحفظه وأحفظ معه ، ثم يذهب الى الشيخ كمال الدين فيقرأ درسه ويشرح له وأنا أسمع . وتخرجت الى أن صرت أسبقه فى الحفظ والفهم وأصرف أكثر الليل فى الحفظ والتكرار واقمنا على ذلك برهة كلما جاد حفظى وكثر وجاد وفهمى وقوى استنار ذهنى احتد واستقام . وانا الازم الشيخ وشيخ الشيخ وأول ما ابتدأت حفظت اللمع فى ثمانية أشهر أسمع كل يوم شرح اكثرها مما يقرؤه غيرى ، وأنقلب الى بيتى فأطالع شرح الثمانين وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح ابن برهان وكل ما آجد من شروحه وأشرحها لتلاميذ يختصون بى الى أن صرت أتكلم على كل باب كراريس ولا ينفد ما عندى . ثم حفظت أدب الكاتب لابن قتيبة حفظا متقنا، أما النصف الأول ففى شهور وأما تقويم اللسان ففى أربعة عشر يوما لأنه كان أربعة عشر كراسا . ثم حفظت مشكل القرآن له وغريب القرآن له وكل ذلك فى مدة يسيرة ثم انتقلت الى الايضاح لابى على الفارسى فحفظته فى شهور كثيرة ولازمت مطالعة شروحه وتبعمته التتبع التام حتى تبهرت فيه وجمعت ما قال الشراح . وأما التكملة فحفظتها فى أيام يسيرة كل يوم كراسا وطالعت الكتب المبسولة المختصرات وواظبت على المقتضب

للمبرد وكتاب ابن درستويه ، وفى أثناء ذلك لا أغفل سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضلان بدار الذهب وهى مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب * قال : وللشيخ كمال الدين مائة تصنيف وثلاثون تصنيفا أكثرها فى النحو وبعضها فى الفقه والأصول وفى التصوف والزهد وأتيت على أكثر تصانيفه سماعا وقراءة وحفظا ، وشرع فى تصنيفين كبيرين أحدهما فى اللغة والآخر فى الفقه ولم يتفق له اتمامهما ، وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه وأكبت على المقتضب فأتقنته * وبعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه ولشرحه للسيرافى ثم قرأت على ابن عبيدة الكرخى كتب كثيرة ، منها كتاب الأصول لابن السراج والنسخة فى وقف ابن الخشاب برباط المأمونية ، وقرأت عليه الفرائض والفروض للخطيب التبريزى وهو من خواص تلاميذ ابن الشجرى ، وأما ابن الخشاب فسمعت بقراءته معانى الزجاج (★) وسمعت الحديث المسلسل وهو الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء *

وقال أيضا موفق الدين البغدادى ، ان من مشايخه الذين انتفع بهم كما زعم ولد أمين الدولة بن التلميذ وبالغ فى وصفه وكثر * وهذا لكثرة تعصبه للعراقيين والا فولد أمين الدولة لم يكن بهذه المثابة أو قريبا منها * وقال انه ورد الى بغداد رجل مغربى طوال فى زى التصوف ، له أبهة ولسن مقبول الصورة عليه مسحة الدين وهيئة السياحة ينفع لصورته من رآه قبل أن يخبره يعرف بأبن تاتلى يزعم أنه من أولاد المثلثة (١) خرج من المغرب لما استولى عليها

(١) أى من قبائل الطوارق

(★) بتشديد الجيم وفتحها

عبد المؤمن فلما استقر ببغداد اجتمع اليه جماعة من الأكابر والأعيان ، وحضره الرضى القزوينى وشيخ الشيوخ ابن سكيّنة ، وكنت واحدا ممن حضره فأقرأنى مقدمة حساب ومقدمة ابن بابشاذ فى النحو ، وكان له طريق فى التعليم عجيب ومن يحضره يظن أنه متبحر وانما كان متطرفا ؛ لكنه قد آمن فى كتب الكيمياء والطلسمات وما يجرى مجراها ، وأتى على كتب جابر بأسرها وعلى كتب ابن وحشية ، وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه وايهامه فملأ قلبى شوقا الى العلوم كلها واجتمع بالامام الناصر لدين الله وأعجبه ثم سافر وأقبلت على الاشتغال وشمريت ذيل الجذ والاجتهاد وهجرت النوم واللذات ، وأكبت على كتب الغزالي: المقاصد والمعيار والميزان ومحك النظر ثم انتقلت الى كتب ابن سينا صغارها وكبارها وحفظت كتاب النجاة وكتبت الشفاء وبحثت فيه وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سينا وكتبت وحصلت كثيرا من كتب جابر بن حيان الصوفى وابن وحشية وباشرت عمل الصنعة الباطلة وتجارب الضلال الفارغة * وأقوى من أضلنى ابن سينا بكتابه فى الصنعة الذى تم به فلسفته التى لا تزدد بالتمام الا نقصا *

قال : ولما كان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتى لكن وجدت الكمال بن يونس جيدا فى الرياضيات والفقه متطرفا من باقى أجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها * واجتمع الى جماعة كثيرة وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التى تحتها وأقمت بالموصل سنة فى اشتغال

دائم متواصل ليلا ونهارا • وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا من أحد قبلي ما رأوا مني من سعة المحفوظ وسرعة الخاطر وسكون الطائر • وسمعت الناس يهرجون في حديث الشهاب السهروردي المتفلسف ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء فهمت لقصده ثم أدركني التوفيق فطلبت من ابن يونس شيئا من تصانيفه وكان أيضا معتقدا فيها فوقعت على التلويحات واللمحة والمعارج فصادفت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان ووجدت لى تعاليق كثيرة لا أرتضيها هي خير من كلام هذا الأحمق • وفي أثناء كلامه ثبتت حروفا مقطعة يوهم بها أمثاله أنها أسرار الهية •

قال : ولما دخلت دمشق ، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحى جمعا كثيرا • منهم جمال الدين عبد اللطيف ولد الشيخ أبى النجيب وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء وابن طلحة الكاتب ، وبيت ابن جهير وابن العطار المقتول الوزير وابن هبيرة الوزير • واجتمعت بالكندى البغدادي النحوى وجرت بيننا مباحثات فأظهرنى الله تعالى عليه فى مسائل كثيرة ، ثم انى أهملت جانبه فكان يتأذى باهمالى له أكثر مما يتأذى الناس منه • وعملت بدمشق تصانيف جمّة منها : غريب الحديث الكبير ، جمعت فيه غريب أبى عبيد القاسم بن سلام وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابي وكنت ابتدأت به فى الموصل وعملت له مختصرا سميته المجرد ، وعملت كتاب الواضحة فى اعراب الفاتحة نحو عشرين كراسا ، وكتاب الألف واللام ، وكتاب رب ، وكتايبا فى الذات والصفات الذاتية الجارية على السنة المتكلمين ، وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندى • ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن تاتلى نازلا بالماذنة الغربية ،

وقد عكف عليه جماعة وتحزب الناس فيه حزبين : له وعليه * فكان الخطيب الدولعى عليه وكان من الأعيان له منزلة وناموس ثم خلط ابن تاتلى على نفسه فأعان عدوه عليه وصار يتكلم فى الكيمياء والفلسفة وكثر التشنيع عليه واجتمعت به فصار يسألنى عن أعمال اعتقد أنها خسيصة نزرة ؛ فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها منى وكاشفتها فلم أجده كما كان فى نفسى فساء به ظنى وبطريقته ثم باحثته فى العلوم فوجدت عنده منها أطرافا نزره فقلت له يوما : لو صرفت زمانك الذى ضيعته فى طلب الصناعة الى بعض العلوم الشرعية أو العقلية كنت اليوم فريد عصرك مخدوما طول عمرك وهذا هو الكيمياء لا ما تطلبه * ثم اعتبرت بحاله وانزجرت بسوء مآله * والسعيد من وعظ بغيره فاقلعت لكن لا كل الاقلاع * ثم انه توجه الى صلاح الدين بظاهر عكا يشكو اليه الدولعى ، وعاد مريضاً وحمل الى البيمارستان فمات به ، وأخذ كتبه المعتمد شحنة دمشق وكان متيما بالصناعة *

ثم انى توجهت الى زيارة القدس ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمعت ببهاء الدين شداد قاضى العسكر يومئذ وقد اتصلت به شهرتى بالمرسل فانبسطالى وأقبل على وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب * فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة * وقال : هذا كتاب الى بلدكم * وذاكرنى فى مسائل من علم الكلام ، وقال : قوموا بنا الى القاضى الفاضل، فدخلنا عليه * فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملى على اثنين ووجهه وشفته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه فى اخراج الكلام كأنه يكتب بجملته أعضائه * وسألنى القاضى الفاضل عن قوله سبحانه تعالى : « حتى اذا

جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنوها ، آين جواب اذا ؟ وآين جواب لو فى قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سیرت به الجبال » ؟ وعن مسائل كثيرة ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء وقال لى : ترجع الى دمشق وتجرى عليك الجرايات ، فقلت : أريد مصر ، فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها . فقلت : لا يد لى من مصر ؛ فكتب لى ورقة صغيرة الى وكيله بها فلما دخلت القاهرة جاءنى وكيله وهو ابن سناء الملك ، وكان شيخا جليل القدر نافذ الأمر فأنزلنى دارا قد أزيحت عليها وجاعنى بدنانير وغلة . ثم مضى الى أرباب الدولة وقال : هذا ضيف القاضى الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل جانب . وكانت كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضى الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية فى حقى وأقمت بمسجد الحاجب رحمه الله أقرئ الناس وكان قصدى فى مصر ثلاث أنفس : ياسين السيمىائى ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودى ، وآبو القاسم الشارعى . وكلهم جاءونى . أما ياسين فوجدته محالیا كذابا مشعبذا ، يشهد للشاقانى بالكيمياء ويشهد له الشاقانى بالسيمياء ويقول عنه انه يعمل أعمالا يعجز موسى بن عمران عنها ، وانه يحضر الذهب المضروب متى شاء وبأى مقدار شاء وبأية سكة شاء وانه يجعل ماء النيل خيمة يجلس فيها وأصحابه تحتها . وكان ضعيف الحال . وجاعنى موسى فوجدته فاضلا فى الغاية ، قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة أرباب الدنيا وعمل كتابا فى الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وشرط أن لا يغير فيه حرفا الا أن يكون واو عطف أو فاء وصل وانما ينقل فصولا يختارها . وعمل كتابا لليهود

سماه كتاب الدلالة ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفصل أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها * وكنت ذات يوم بالمسجد وعندى جمع كثير فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة مقبول الصورة فهابه الجمع ورفعوه فوقهم وأخذت فى اتمام كلامى فلما تصرم المجلس جاءنى امام المسجد وقال : أتعرف هذا الشيخ ؟ هذا أبو القاسم الشارعى فاعتنقته وقلت : اياك أطلب ، فأخذته الى منزلى وأكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث فوجدته كمتشتتهى الأنفس وتلد الأعين سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته قد رضى من الدنيا ببرض لا يتعلق منها بشيء يشغله عن طلب الفضيلة * ثم لازمى فوجدته قيما بكتب (★) القدماء وكتب أبى نصر الفارابى ، ولم يكن لى اعتقاد فى أحد من هؤلاء ؛ لأنى كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه وإذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسان ويغلبنى بقوة الحجة وظهور المحجة * وأنا لا تلين قناتى لغمزه ولا أحمى عن جادة الهوى والتعصب برمزه ، فصار يحضرنى شيئا بعد شيء من كتب أبى نصر والاسكندر وثامسطيوس يؤنس بذلك نفارى ويلين عريكة شماسى حتى عطفت عليه أقدم رجلا وأؤخر أخرى * وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس فقادت الضرورة الى التوجه اليه فأخذت من كتب القدماء ما أمكننى وتوجهت الى القدس ، فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة قريبا بعيدا سهلا مجيبا وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى : «ونزعنا ما فى صدورهم من غل» * وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل يتذاكرون فى أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع والمشاركة ويأخذ فى

كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع * وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه وينقل الأحجار على عاتقه ويتأسى به جميع الناس : الفقهاء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل * ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر يأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ويركب العصر ويرجع في الشارع ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا * فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار، ورجعت الى دمشق وأكبت على الاشتغال واقراء الناس بالجامع ، وكلما أمعنت في كتب القدماء ازدادت فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة واطلعت على بطلان الكيمياء ، وعرفت حقيقة الحال في وضعها ومن وضعها وتكذب بها وما كان قصده في ذلك وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين وتضاعف شكرى لله سبحانه وتعالى على ذلك، فان أكثر الناس انما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء ثم ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ثم رجع فحم فقصده من لا خبرة عنده ؛ فخارت القوة ومات قبل الرابع عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء وما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه ؛ لأنه كان محبوبا يحبه البر والفاجر والمسلم والكافر * ثم تفرق أولاده وأصحابه أيادى سبأ ومزقوا في البلاد كل ممزق أكثرهم توجه الى مصر لخصبها وسعة صدر ملكها ، وأقامت بدمشق وملكها الملك الأفضل وهو أكبر الأولاد في السن الى أن جاء الملك العزيز بمساكر مصر يحاصر أخاه بدمشق فلم ينل منه بغية * ثم

تأخر الى مرج الصفرلة (★) وعرض له لنج فخرجت اليه بعد خلاصه منه ، فأذن لي في الرحيل معه وأجرى على من بيت المال كفايتي وزيادة وأقمت مع الشيخ أبي القاسم يلزمني صباح مساء الى أن قضى نحبه * ولما اشتد مرضه وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه أشرت عليه بدواء فأنشد :

لا أذود الطير عن شجر قد بلسوت المر من ثمره

ثم سألته عن آله ، فقال : ما لجرح بميت ايلام *

وكانت سيرتي في هذه المدة أنى أقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون وفي الليل أشتغل مع نفسي ولم أزل على ذلك الى أن توفي الملك العزيز ، وكان شابا كريما شجاعا كثير الحياء لا يحسن قول لا وكان مع حداثة سنه وشره شبابه كامل العفة عن الأموال والفروج *

(أقول) : ثم ان الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك مدة وله الراتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين وأتى الى مصر ذلك الغلاء العظيم والموتان الذي لم يشاهد مثله * وألف الشيخ موفق الدين في ذلك كتابا ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها تذهل العقل وسمى ذلك الكتاب كتاب « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » ، ثم لما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين وانتزع ملكهم ، توجه الشيخ موفق الدين الى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد الى الجامع الأقصى ، ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم وصنف هنالك كتبا كثيرة * ثم انه توجه الى

دمشق وتزل بالمدرسة العزيزية بها وذلك في سنة أربع وستمائة ، وشرع في التدريس والاشتغال وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه ويقرعون أصنافا من العلوم ، وتميز في صناعة الطب بدمشق وصنف في هذا الفن كتباً كثيرة وعرف به . وأما قبل ذلك فأنما كانت شهرته بعلم النحو . وأقام بدمشق مدة وانتفع الناس به ، ثم انه سافر الى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب ارزنجان . وكان مكينا عنده عظيم المنزلة وله منه الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة وصنف باسمه عدة كتب . وكان هذا الملك على الهمة كثير الحياء كريم النفس ، وقد اشتغل بشيء من العلوم ولم يزل في خدمته الى ان استولى على ملكه صاحب ارزن الروم ، وهو السلطان كيغباذ بن كيخسرو بن قلع أرسلان ثم قبض على صاحب ارزنجان ولم يظهر له خبر .

(قال) الشيخ موفق الدين عبد اللطيف : ولما كان في سابع عشر ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وستمائة توجهت الى أرزن الروم وفي حادي عشر صفر من سنة ست وعشرين وستمائة رجعت الى أرزنجان من أرزن الروم وفي نصف ربيع الأول توجهت الى كمانخ وفي جمادى الأولى توجهت منها الى دبركي ، وفي رجب توجهت منها الى ملطية وفي آخر رمضان توجهت الى حلب ، وصلينا صلاة عيد الفطر بالبهنساء ودخلنا حلب يوم الجمعة تاسع شوال فوجدناها قد تضاعفت عمارتها وخيرها وأمنها يحسن سيرة أتاك شهاب الدين واجتمع الناس على محبته لمعدله في رعيته .

(أقول) : وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه وكثرت تصانيفه ، وكان له من شهاب الدين

طغريل الخادم أتابك حلب جار حسن وهو متفرغ لتدريس صناعة الطب وغيرها ويتردد الى الجامع بحلب ليسمع الحديث ويقرأ العربية . وكان دائم الاشتغال ملازماً للكتابة والتصنيف ولما أقام بحلب قصدت أن أتوجه اليه وأجتمع اليه وأجتمع به ، فلم يتفق ذلك وكانت كتبه أبداً تصل إلينا ومراسلاته ، وبعث الى أشياء من تصانيفه من خطه .

(وهذه) نسخة كتاب كتبه اليه لما كان بحلب : المملوك بواصل بدعائه وثنائه وشكره وانتمائه الى عبودية المجلس السامى المولوى السيدى السندى الأجل الكبرى العالمى الفاضل موفق الدين سيد العلماء فى الغابرين والحاضرين جامع العلوم المتفرقة فى العالمين ولى أمير المؤمنين أوضح الله به سبل الهداية وأثار ببقائه طرق الدراية وحقق بحقائق ألفاظه صحيح الولاية ، ولا زالت سعادته دائمة البقاء وسيادته سامية الارتقاء وتصانيفه فى الآفاق قدوة العلماء وعمدة سائر الأدباء والحكماء . المملوك يجدد الخدمة ويهدى من السلام أطيبه ومن الشكر والثناء أعذبه ، وينهى ما يكايده من أليم التلطمع الى مشاهدة أنوار شمس المنيرة ، وما يعانيه من الارتياح الى ملاحظة شريف حضرته الأثيرة وما تزايد من القلق وتعاضم عند سماعه قرب المزار من الأرق :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الديار من الديار

ولولا أمل قفول الركاب العالى ووصول الجناب الموفى الجلالى، لسارع المملوك الى الوصول ، ولبادر المبادرة بالمثل، ولجاء الى شريف خدمته وفاز بالنظر الى بهى طلعتة . فيا سعادة من فاز بالنظر اليه ويا بشرى من مثل بين يديه ويا سرور من حظى بوجه اقباله عليه ، ومن ورد بحار فضله

من نميرها واستضاء بشمس علمه فسرى في ضياء منيرها
نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع وتحصيل الجمع بين مسرتي
الابصار والاسماع بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى *

(ومن مراسلات) الشيخ موفق الدين عبد اللطيف أنه
بعث الى أبي في أول كتاب وهو يقول فيه عنى : ولد الولد
أعز من الولد وهذا موفق الدين ولد ولدى وأعز الناس عندي
وما زالت النجاية تتبين لي فيه من الصغر * ووصف وأثنى
كثيرا * وقال فيه : ولو أمكنني أن آتى اليه بالقصد ليشغل
على لفعلت * وبالجمل ، فانه قد عزم أن يأتى الى دمشق ويقيم
بها ثم خطر له أنه قبل ذلك يحج ويجعل طريقه على بغداد ،
وأن يقدم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ولما
وصل بغداد مرض في أثناء ذلك وتوفاه رحمه الله يوم الأحد
ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمئة * ودفن
بالوردية عند أبيه ، وذلك بعد أن خرج من بغداد وبقي
غائبا عنها خمسا وأربعين سنة ، ثم ان الله تعالى ساقه اليها
وقضى منيته بها *

(ومن) كلام موفق الدين عبد اللطيف البغدادي مما
نقلته من خطه قال : ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت
الى منامك وتنظر ما كسبت في يومك من حسنة فتشكر الله
عليها ، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وترتب في
نفسك مما تعمله في غدك من الحسنات وتسأل الله الاعانة
على ذلك * وقال : أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وان
وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك بالاستاذين في كل علم
تطلب اكتسابه ولو كان الأستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى
تجد أكمل منه وعليك بتعظيمه وتوقيره ، وان قدرت أن تفيد
من دنياك فافعل والا فبلسانك وثنائك واذا قرأت كتابا ،
فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهم

أن الكتاب قد عدم وأنتك مستغن عنه لا تحزن لفقده ، وإذا كنت مكبا على دراسة كتاب وتفهمه فايك أن تشتغل بآخر معه واصرف الزمان الذى تريد صرفه فى غيره اليك واياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله ، فاذا قضيت منه وطرك فانتقل الى علم آخر ولا تظن أنك اذا حصلت علما فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدئ بالتحفظ والتعلم ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف ، واذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم فان كل علم مكثف بنفسه مستغن عن غيره ، فان استعانتك فى علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه • وكمن يستعين بلغة أخرى اذا ضاقت عليه أو جهل بعضها قال : وينبغى للانسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه فى عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم • قال : وينبغى أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول فاقرأ سيرة النبی ﷺ ، وتتبع أفعاله وأحواله واقتف آثاره وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك واذا وقفت على سيرته فى مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقتلته وتمرضه وتطبيه وتمتعه وتطليه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد • قال : وينبغى أن تكثراتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم فتتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبداه الزلل ومن لم يعرق جبينه الى أبواب العلماء ، لم يعرق فى الفضيلة ومن لم يبجلوه ، لم يبجله الناس ومن لم يبكتوه ، لم يسود ومن لم يحتمل ألم التعلم ،

لم يذق لذة العلم ومن لم يكدح ، لم يفلح واذا خلوت من
التعلم والتفكر ؛ فحرك لسانك بذكر الله وبتساويه وخاصة
عند النوم فيتشربه لبك ويتعجن في خيالك وتتكلم به في
منامك واذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا ؛ فاذكر
الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات واذا أحزنك أمر ،
فاسترجع واذا اعترتك غفلة ؛ فاستغفر واجعل الموت نصب
عينك والعلم والتقى زادك الى الآخرة واذا أردت أن تعصى
الله ، فاطلب مكانا لا يراك فيه • واعلم أن الناس عيون الله
على العبد يريهم خيره وان أخفاه ، وشره وان ستره فباطنه
مكشوف لله والله يكشفه لعباده فعليك أن تجعل باطنك خيرا
من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ولا تتألم اذا أعرضت
عنك الدنيا فلو عرضت لك ، لشغلتك عن كسب الفضائل •
وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة الا أن يكون شريف الهمة
جدا أو أن يشرى بعد تحصيل العلم ، وانى لا أقول ان الدنيا
تعرض عن طالب العلم بل هو الذى يعرض عنها ، لأن همته
مصروفة الى العلم فلا يبقى له التفات الى الدنيا والدنيا انما
تحصل بحرص وفكر في وجوها فاذا غفل عن أسبابها لم
تأت • وأيضا فان طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع
الرذلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات وعن التدلل
لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض اخواننا بيت
شعر :

من جد في طلب العلوم أفاته شرف العلوم دناءة التحصيل
وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذر
فيها وصرف الزمان اليها والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من
ذلك ، وانما ينتظر أن تأتية الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير
أن يطلبها طلب مثلها وهذا ظلم منه وعدوان ولكن اذا تمكن

الرجل فى العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة ، وأخذها وماء وجهه موفور وعرضه ودينه مصون ، واعلم أن للعلم عبقة وعرفا ينادى على صاحبه ونورا وضياء يشرق عليه ويدل عليه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته ولكن يمشى بمشعل فى ليل مدلهم . والعالم مع هذا محبوب أينما كان وكيفما كان لا يجد الا من يميل اليه ويؤثر قربيه ويأنس به ويرتاح بمدايناته واعلم أن العلوم تغور ثم تغور ، تغور فى زمان وتغور فى زمان . بمنزلة النبات أو عيون المياه وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع الى صقع . (ومن) كلامه أيضا نقلته من خطه قال : اجعل كلامك فى الغالب بصفات أن يكون وجيزا فصيحيا فى معنى مهم أو مستحسن فيه الغاز ما وإيهام كثير أو قليل ولا تجعله مهملا ككلام الجمهور بل رفعه عنهم ولا تباعده عليهم جدا . وقال : اياك والهذر والكلام فيما لا يعنى ، وإياك والسكوت فى محل الحاجة ورجوع النوبة اليك اما لاستخراج حق أو اجتلاب مودة أو تنبيه على فضيلة وإياك والضحك مع كلامك وكثرة الكلام وتبثير الكلام بل اجعل كلامك سردا بسكوت بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه وانه عن خميرة سابقة ونظر متقدم . وقال : اياك والغلظة فى الخطاب والجفاء فى المناظرة ، فان ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط فائدته ويعسدم حلاوته ويجلب الضفائن ويمحق المودات ويصير القائل مستثقلا سكوته أشهى الى السامع من كلامه ويثير النفوس على معاندته ويبسط الألسن بمخاشنته واذهاب حرمة . وقال : لا ترتفع بحيث تستثقل ولا تتنازل حيث تستخس وتستحق . وقال : اجعل كلامك كله جزلا ، وأجب من حيث تعقل لا من حيث تعناد وتألف . وقال : انتزع عن عادات الصبا وتجرد عن مألوفات الطبيعة

واجعل كلامك لاهوتيا في الغالب لا ينفك من خبر أو قرآن
أو قول حكيم أو بيت نادر أو مثل سائر * وقال : تجنب
الوقية في الناس وثلب الملوك والغلبة على المعاشرة
وكثرة الغضب وتجاوز الحد فيه * وقال : استكثر من
حفظ الأشعار الأمثالية والنوادر الحكيمة والمعاني
المستغربة * (ومن) دعائه رحمه الله قال : اللهم أعذنا من
شموس الطبيعة وجموح النفس الردية وسلس لنا مقادا
لتوفيق ، وخذ بنا في سواء الطريق يا هادي العمى يا مرشد
الضلال يا محيي القلوب الميتة بالايمن يا منير ظلمة الضلالة
بنور الانقاذ خذ بأيدينا من مهواة الهلكة نجنا من ردة
الطبيعة طهرنا من درن الدنيا الدنية بالاخلاص لك والتقوى
انك مالك الآخرة والدنيا *

من كتاب

الإفادة والاعتبار في الأمور

المشاهدة والمحاولات المعينة

بأرض مصر

الفصل الأول

فى خواص مصر العامة

ان أرض مصر من البلاد المعجبية الآثار ، الغربية الأخبار .
وهى واد يكتنفه جبالان شرقى وغربى . والشرقى أعظمهما .
يبتديان من أسوان ويتقاربان باسنا (١) حتى يكادا يتماسان
ثم ينفرجان قليلا قليلا . وكلما امتدا طولا انفرجا عرضا
حتى اذا حاذيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه .
ثم يتباعدان أكثر من ذلك والنيل ينساب بينهما ويتشعب
بأسافل الأرض وجميع شعبه تصب فى البحر المالح (٢) .

وهذا النيل له خاصتان : الأولى - بعد مرماه . فانا
لا نعلم فى المعمورة نهرا أبعد مسافة منه ؛ لأن مباديه عيون

(١) اسنا الحالية وهى من المدن القديمة ، وكان اسمها المقدس هو مات خونومو
Haï Khounoumou ويعنى قصر الاله خونومو . واسمها القبطى سننى Seni
أو سنا Sna أو اسنى Esni ومنه اسمها العربى : اسنا واسماها الرومان
لاتوبولس Latopolis ، وهى غربى النيل ، وأنشأ اليها الأسعد بن مماتى فى كتابه
قوانين الدواوين باعتبارها من أعمال قوص . القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ج ٤ من
القسم الثانى ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٢) المقصود بأسافل الأرض منطقة الدلتا ، وقد استخدم المؤلف هذا التعبير للدلالة
على الدلتا فى أكثر من موضع من كتابه ، ويفهم من التعبير أنه كان للنيل أكثر من فرعين
فى أواخر القرن السادس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) .

تأتى من جبل القمر وزعموا أن هذا الجبل وراء خط الاستواء
 باحدى عشرة درجة . وعرض أسوان وهى مبدأ أرض مصر
 اثنتان وعشرون درجة ونصف درجة . وعرض دمياط وهى
 اقصى أرض مصر احدى وثلاثون درجة وثلث درجة . فتكون
 مسافة النيل على خط مستقيم ثلاثا واربعين درجة تنقص
 سدسا ومساحة ذلك تقريبا تسعمائة فرسخ ، هذا سوى
 ما يأخذ من التعريج والتوريب فان اعتبر ذلك تضاعفت
 المساحة جدا .

والخاصة الثانية - أنه يزيد عند نضوب سائر الأنهار
 ونشيش (٣) المياه ؛ لأنه يبتدىء بالزيادة عند انتهاء طول
 النهار وتتناهى زيادته عند الاعتدال الخريفى وحينئذ تفتح
 الترع وتفيض على الأراضى . وعلة ذلك أن مواد زيادته
 أمطار غزيرة دائمة وسيول متواصلة تمده فى هذا الأوان فان
 أمطار الاقليم الأول والثانى انما تنزر فى الصيف والقيظ .

وأما أرض مصر فلها أيضا خواص منها أنه لا يقع بها
 مطر الا ما لا احتفال به (٤) وخصوصا صعيدها ، فأما أسافلها
 فقد يقع بها مطر جود لكنه لا يفيى بحاجة الزراعة . وأما
 دمياط والاسكندرية وما دناهما فهى غزيرة المطر ومنه
 يشربون وليس بأرض مصر عين ولا نهر سوى نيلها .

ومنها أن أرضها رملية لا تصلح للزراعة ؛ لكنه يأتيها

(٣) نشيش المياه جفافها ، وهى لسان العرب لابن منظور : « نس الغدير والحوش يمش
 نسا ونشيشا . يمش ماؤها ونصب . وقيل: نش الماء على وجه الأرض نشف وجف
 ونش الرطب وذرى أى ذهب ماؤه . . . » ولعل ارتباط قلة العمل أو انعدامه فى العامية
 المصرية بـ «نشى» الناس «راجع لهذا ، فاذن خفت المياه فلا زراعة ولا عمل وجلس الفلاح
 « نشى » ولا علاقة اخلك بنش الذباب أو غيره وانما لهذه الكلمة العامية كما اتضح الآن أصل
 صحيح وفاروس ، تاريخية وجغرافية .

(٤) لا احتفال به تعبير يعيد أنه - أى المطر - قليل .

طين آسود علك (٥) فيه دسومة كثيرة يسمى الابلين يأتيتها من بلاد السودان مختلطا بماء النيل عند مده فيستقر الطين وينضب الماء فيحترث ويزرع • وكل سنة يأتيتها طين جديد ؛ ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شئ منها كما يفعل فى العراق والشام لكنها يخالف عليها الأصناف • وقد لحظت العرب ذلك فأنها تقول : اذا كثرت الرياح جادت الحراثة ؛ لأنها تجيء بتراب غريب ، وتقول أيضا : اذا كثرت المؤتفكات (٦) زكا الزرع • ولهذه العلة تكون أرض الصعيد زكية كثيرة الأتاء والريع اذا كانت أقرب الى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الأرض فأنها آسافة مضوية اذ كانت رقيقة ضعيفة الطين ؛ لأنه يأتيتها الماء وقد راق وصفا ولا أعرف شبيها بذلك الا ما حكى لى عن بعض جبال الاقليم الأول أن الرياح تأتية وقت الزراعة بتراب كثير ثم يقع عليه المطر فيتلبد فيحترث ويزرع فاذا حصد ؛ جاءته رياح أخرى فنسفته حتى يعود أجرد كما كان أولا • ومنها أن الفصول بها متغيرة عن طبيعتها التى لها فان آخص الأوقات باليبس فى سائر البلاد أعنى الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمد نيلها وفيضه لأنه يمد فى الصيف ويطبق الأرض فى الخريف •

(٥) فى لسان العرب « شئ علك بفتح المعين وكسر اللام أى لزح ، وعلك الشئ يملكه علدا أى مضغه حتى يديره لرجا » ، وقد ورد الفعل لدى الشعراء الجاهلين وهن ذلك قول النابغة الذبياني :

خيل صيام وخيل غير صائمة

تحت العجاج ، وأخرى تعلق للجما

ولازلت الكلمة مستخدمة فى العامة الشامية بمعنى اللسان وهو السوء المفضوغ المعروف اذ يسمونه علكة •

(٦) المؤتفكات : الرياح التى تقلب الأرض ، والمؤتفكات أيضا الرياح التى تختلف مهابها • تقول العرب . اذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض أى ركا زرعها •

فأما سائر البلاد فإن مياهها تنش في هذا الأوان وتغزر في
أخص الأوقات بالرطوبة - أعنى الشتاء والربيع - ومصر
إذ ذاك تكون في غاية القحولة واليبس ولهذه العلة تكثر
عفوناتها واختلاف هوائها وتغلب على أهلها الأمراض العفنية
الحادثة عن أخلاط صفراوية وبلغمية ، وقلما تجد فيهم
أمراضا صفراوية خالصة ، بل الغالب عليها البلغم حتى في
الشباب والمحوررين * وكثيرا ما يكون مع الصفراخام * وأكثر
أمراضهم في آخر الخريف وأول الشتاء لكنها يغلب عليها
حميد العاقبة وتقل فيهم الأمراض الحادة والدموية الوحية ،
وأما أصحابهم فيغلب عليهم الترهل والكسل وشحوب اللون
وكمودته وقلما ترى فيهم مشبوب اللون ظاهر الدم ، وأما
صبيانهم فضاوون يغلب عليهم الدمامة وقلة النضارة وانما
تحدث لهم البدانة والقسامة غالبا بعد العشرين *

وأما ذكاؤهم وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم فلحرارة
بلدهم الذاتية لأن رطوبته عرضية * ولهذا كان أهل الصعيد
أفعل جسوما وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة وكان
ساكنو الفسطاط الى دمياط أرطب أبدانا والغالب عليهم
البياض * ولما رأى قدماء المصريين أن عمارة أرضهم انما هي
بنيلها جعلوا أول سنتهم أول الخريف وذلك عند بلوغ النيل
الغاية القصوى من الزيادة *

ومنها أن الصبا (٧) محجوبة عنهم بجبلها الشرقي المسمى
المقطم، فإنه يستتر عنها هذه الريح الفاضلة وقلما تهب عليهم

(٧) الصبا ريح معروفة تقابل الدبور ، وفى الصحاح : الصبا ريح ومهبها المستوى
أن تهب من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار * عن لسان العرب لابن
منظور / مادة : ص'ب'و .

خالصة اللهم الا نكبا . ولهذا اختار قداماء المصريين أن يجعلوا مستقر الملك منف ونحوها مما يبعد عن هذا الجبل الشرقى الى الغربى واختار الروم الاسكندرية وتجنبوا موضع الفسطاط؛ لقربه من المقطم فان الجبل يستتر عما فى لطفه أكثر مما يستتر عما بعد منه . ثم ان الشمس يتأخر طلوعها عليهم فيقل فى هوائهم النضج ويبقى زمانا على نهوة الليل؛ ولذلك تجد المواضع المتكشفة للصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها ولكنرة رطوبتها يتسارع العفن اليها ، ويكثر فيها الفار ويتولد من الطين والعقارب وتكثر بقوص (٨) كثيرا ما تقتل بلبسها والبق المنتن والذباب والبراغيث تدوم زمانا طويلا .

ومنها أن الجنوب اذا هبت عندهم فى الشتاء والربيع وفيما بعد ذلك كانت باردة جدا ويسموننها المريسى (٩) مرورها على أرض المريس وهى من بلاد السودان . وسبب بردها مرورها على برك ونقائع . والدليل على صحة ذلك انها اذا دامت أياما متوالية عادت الى حرارتها الطبيعية واستخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا .

(٨) قوص ، من النواحي القديمة واسمها الاصلى قمولة ، والقبطى Kamouli غرب النيل ، ومن قراها القديمة الحراجيه ، والشعرانى والمسيد والمفرجية وجراجوس ودنيق وشنهور وطوخ وعباسة . عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ق ٢ / ج ٤ / ١٨٣ - ١٩١ .

(٩) هناك أيضا مناطق وقرى فى مصر يطلق عليها اسم المريس ، ومن ذلك قرية بهذا الاسم تابعة للاقصر وهى من القرى القديمة . القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ق ٢ / ج ٤ / ص ١٦٣ .

الفصل الثانی

فیما تختص به من النبات

من ذلك البامیة (١) وهی ثمر بقدر ابهام الیسد كأنه جراً (٢) القثاء شدید الخضرة ، الا آن علیه زیبر (٣) مشوكا وهو مخمس الشكل یحیط به خمسة أضلاع فاذا شق انشق عن خمسة أبیات بینها حواجز* وفى تلك الأبیات حب مصطف مستدير أبيض أصغر من اللوبیا (٤) هثن یضرب الى الحلاوة وفيه قبض ولعابية كثيرة یطبخ أهل مصر به اللحم بأن یقطع مع قشوره صفاراً ویكون طعاماً لا بأس به ، الغالب على

(١) من الفصيلة الخبازية ثمارها تؤكل مطبوخة قبل أن تقسو أى قبل أن تقترب من الجفاف ، وقد اعتمد معجم الشهابی لمصطلح العلوم الزراعية ما أورده عبد اللطیف البغدادی فی الافادة والاعتبار (وهو الكتاب الذى بین ینیدنا الآن) كمصدر أساسی لتوثیق اللفظ العربی . المقابل العلمی . *Ilibisous esculentus* .

— معجم الشهابی لمصطلحات العلوم الزراعية ، ماده *okra* .

— معجم المصطلحات العلمیة لیوسف خیاط عربی — انجلیزی — ماده بامیة .

(٢) جراً بدون همز ، والهمز فی هذه الطبعة خطأ مطبعی ، وهو الجرو (یکسر الجیم) والجروه (یکسر الجیم ایضاً) الصغیر من کل شیء حتى من الحنظل والبطیخ والقثاء والزمان والخیار والباذنجان ... الخ . راجع لسان العرب لابن مطور ماده (جرد) .

(٣) فی لسان العرب : الزبرة الشعر المجتمع للفحل والاسد و غیرها .. ورجل أزبر كثير الشعر ، وكل شعر مجتمع فهو زبرة ، والمقصود أن على البامیة ما یشبه الوبر أو الزغب .

(٤) المقصود یشبه اللوبیا .

طبعه الحرارة والرطوبة ولا يظهر في طبيخه قبض بل
لزوجۃ .

ومن ذلك الملوخية ويسميتها الأطباء الملوكية . ولعمري
هي الخبازي البستاني ، والخطمي (٥) أيضا نوع من
الخبازي (٦) البري * والملوخية أشد مائية ورطوبة من
الخبازي وهي باردة رطبة في الأولى تزرع في الباقل (٧)
ويطبخ لها اللحم ، وهي كثيرة اللعابية وتزرع أيضا بالشام
قليلا ويطبخ بها عندهم في الندرة وهي ردية للمعدة ؛ لكنها
تسكن الحرارة وتبرد ويسرع انحسارها لتزلقها . قال
الاسرائيلي (٨) : رأيت نوعا ثالثا من الخبازي يسمى بمصر
ملوخية السودان ويعرف بالعراق بالشوشنديبا وقوته
وفعله وسط بين الملوخية والخبازي ؛ لأنه أقل غذاء من
الملوخية وأكثر من الخبازي .

(٥) خطم أو خطمي جنس نبات من الخبازيات فيه أنواع برية ومن أنواعه المشهورة
الخطمي الوردي . أشار اليه الشهابي في معجمه تحت المصطلحين التاليين *Althaea*
و *Ketmia* ، ويلاحظ أن المصطلح الأول تحريف للكلمة العربية . وقد أورد الشهابي
أنواعا عديدة منه يستبعد أن تكون ما أشار اليه البغدادى منها :

— وردة العين — يزرع لزهره .

— خطمي المنافع — يزرع لزهره .

— خطمي عسكرى — يزرع لزهره .

— وخطمي وردى أو دمشقى *Alcea Rosea* .

راجع معجم المصطلحات العلمية لخياط ، ومعجم الشهابي .

(٦) خبازة (بتشديد الباء وفتحها) أو خباز أو خباري (بالفتح مقصورة — بفتح
الزاي) والخبيز هو جنس نبات من الفصيلة الخبازية فيها أنواع تستخدم في الطب
وأنواع تؤكل بطبخ ورقه . وردت في معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية تحت
Malva . راجع : معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط / مادة خسر
ومعجم الشهابي — مادة *Malva* .

(٧) تزرع في الباقل أي في أرض لا شجر فيها ، وفي ابن منظور « قال ابن جنى :
مكان مبلل هو القياس ، وباقل أكثر في السماء ، والأول مسموع أيضا » وقال الأصمعي :
أبقل المكان فهو باقل من نبات البقل ، وأورس الشجر فهو وأرس إذا أورق والبقل
هو ما لا تبقى له أرومة بعد أن يرمى ، وفي المثل : لا تنبت البقلة إلا الحقلة ، والحقلة
هي الأرض الطيبة .

(٨) عن الاسرائيلي راجع المقدمة .

ومن ذلك اللبخ (٩) وشجرته - كالسدره (١٠) - ريا نضرة وثمرته بقدر الخلال الكبار وفي لونه ، الا انه مشبع الخضرة كلون المسن ، وما دام فجأ ففيه قبض كما في البلح فاذا نضج طاب وحلا وعادت فيه لزوجته ونواته كنواة الأجاص (١١) أو كقلب اللوزة بيضاء الى الغبرة وتكسر بسهولة ، فتنفلق عن لوزة ريا بيضاء لينه واذا بقيت ثلاثة أيام ضمرت وصلبت . وكلما تطاول عليها الزمن اضمحل اللب وبقي القشر فارغا أو كالفارغ ، غير أنه لا يتشنج بل يتقلقل اللب فيه لسعة المكان عليه ، وتجعد في طعم اللب مرارة ظاهرة ولدعا يبقى أثره في اللسان مدة . وقد حدثت علي أنه أحد ضروب الدند (١٢) الثلاثة ، فقد قال

(٩) اللبخ ، شجر من فصيلة القرنيات ، الواحدة لبخة وردت في معجم الشهابي عند :
Lebbek tree , Lebbek Albizra .

- عن معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط ، ومعجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية .

(١٠) المقصود هنا شجر النبق . معجم المصطلحات العلمية لخياط .

(١١) الأجاص - في معجم الشهابي أن عبد اللطيف البغدادي أشار اليه في كتاب الانادة والاعتبار (وهو الكتاب الذي بين أيدينا الآن) وهو الخوخ أو خوخ الدب بالشام وجعل له الشهابي مقابلا علميا Prunus Ursina (bear plum) وفي موضع آخر يذكر معجم الشهابي أجاصا أهليا أو شائعا ، وهو النوع الزراعي المشهور يسمى البرقوق في مصر والخوخ في الشام (مادة plum tree) .

(١٢) فيما يلي ما ورد في تذكرة داود عن نبات الدند :

(دند) هو المعروف الآن بمصر والشام بحبة الملوك وليس كذلك كما سيأتى ويسمى الحروع الصيني ، منه ما يجلب من سمندور وتناهر وغيرهما من مدن الصين وهو أبيض يضرب ظاهره الى الصفرة دقيق القشر ونوع يجلب من كنيابة والدكن ويعرف بالهندي ويقرب من الأول إلا أن فيه نقطة سودا وصنف يجلب من الشجر وأطراف عمان أسود صغير لا يجوز استعماله لمرداته وهذا الحب يكون تفي شجرة نحو ذراع ورقها كورق الباذنجان لكن أثق يسيرا وزهره كالأوانه ينشأ في غلف دقاق الى خضرة يدرك بمسرى فاذا رفع تبقى قوته سبع سنين في بلده وثلاثة في غيرها وهو حار يابس في أول الربيع ينفع من الاستسقاء واليرقان وأوجاع المفاصل والظهر والساقين والوركين والنقرس والخام والحصى ويفتح السدد ويمنع الشيب ويسود الشعر والهند تستعمله في المعاجين الكبار ولأهل الصين فيه مزيد رغبة من أدوية الأقاليم الباردة والمشايع ولا يجوز لضعاف الأرواح كمصر والجحاز ولا لكثيري التحليل كالحبشة وهو مكرب مغث شديد المغص ***

أرسطو وغيره ان اللبخ كان بفارس سما قاتلا فنقل الى مصر فصار غذاء * وقال نيقولاوس : وأما اللبخ فقد كان فى أرض فارس قاتلا فنقل الى الشام والى مصر فصار جيدا مأكولا وهو قليل غال وانما تكون فى البلاد منه شجرات معدودات ، وأما خشبه ففى غاية الجودة صلب حجرى وأسود وهو عزيز ثمين واهل مصر يحضرون اللبخ مع الفواكه والأشكال * وقال أبو حنيفة الدينورى (١٣) : اللبخ شجرة عظيمة مثل الاثاب (١٤) اذا عظم ، وورقها كورق الجوز ولها جنا كجنا (١٥) الحمام مر اذا كل أعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن ، وهو من شجر الجبال ، ثم روى عن رجل من صعيد مصر أن اللبخ شجر عظام أمثال الدلب (١٦) ، له ثمر أخضر يشبه الثمر حلو جدا ، الا أنه كرية جيد

= يحل القوى ويقىء وربما قتل الاسهال لمن لا يعرف قانونه وبين نصفى حبه اذا انقسمت لسان دقيق أشد ضررا من البيش فينبغى رفعه ويصلحه التربد والبسفايج والزعفران والاشقيل والورد المنزوع والانيسون والكثيرا والهندي مجموعة ومفردة فانه معها يستتمى الاخلاط وينقى من الكيموسات الرديئة وينبغى شرب الماء البارد عليه واللبن ونحو رب الريباس والحصرم وشربته الى دانقين وفيه شعيذة اذا بليت به الاصبع ووضعت على جفن العين ورم يصلحه الشيرج أو الزيت وبذله حب النيل .

(١٣) أبو حنيفة الدينورى هو أحمد بن داود بن وشد (بفتح الواو والنون الأولى وسكون النون الثانية) الدينورى (بتشديد الدال وفتحها وفتح النون وكسر الراء) ، وكنيته * أبو حنيفة * مهندس ومؤرخ وعالم نبات من كتبه الملبوعة : الأخبار الطوال ، وكتاب النبات ، وتفسير القرآن ١٣ مجلدا ، والشعر والشعراء ، والفصاحة والحدرد والمقابلة ، تولى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م * الاعلام لخير الدين الزركلى / ح ١ ، ص ١٢٣ .

(١٤) الاثاب يشبه الجميز (بين الجميز والتين) الشهابى / مادة (Ficus) .

(١٥) الحمام ، بفتح الحاء والميم ، أورده معجم الشهابى تحت الاسم العلمى Ficus Pseudosy Comporus وهو الجميز الكاذب ويسمى أيضا تين الجبل * .

أما جنا فلعله خطأ مطبعى أو املأى ، والصحيح جنى ، وفى لسان العرب لابن منظور « وأجنت الشجرة اذا صار لها جنى يجنى فيؤكل » .

لسان العرب / مادة (ح ن ي) ولم تجده فى (ج ن و) .

(١٦) الدلب من شجر الزينة (معجم المصطلحات الفنية) وفى معجم الشهابى ان اسمه أيضا هضار بكسر الصاد وهناك خلاف فى دلالات الاسم أوردها الشهابى * .

لوجع الأضراس ، قال : واذا نشر أرعف ناشره وينشر فيبلغ ثمن اللوح خمسين دينارا ويجعله أصحاب المراكب في بناء السفن لبعض العلل ، وزعم أنه اذا ضم منه لوحان ضما شديدا وجعلا في الماء سنة التحما وصارا لوحا واحدا • وأكثر ما حكاه الدينوري لا أعرف صحته • وقال ابن سميون (١٧) : اللبخ يكون بمصر وثمرته جيدة للمعدة وقد يوجد عليه صنف من الرتيلاء (١٨) وورقه اذا جفف قطع الدم ذرورا ، والاسهال شربا ، وفيها قبض بين • قال : وأما نوى ثمره ، فيزعم أهل مصر أن أكله يحدث صمما •

ومن ذلك الجميز وهو بمصر كثير جدا ورأيت منه شيئا بمسقلان والساحل ؛ وكأنه تين برى وتخرج ثمرته في الخشب لا تحت الورق ويخلف في السنة سبعة بطون ويؤكل أربعة أشهر ويحمل وقرا عظيما وقبل أن يجيء بأيام يصعد رجل الى الشجرة معه حديدة يسم بها حبة حبة من الثمرة فيجري منها لبن أبيض ، ثم يسود الموضع وتحلو الثمرة بذلك الفعل • وقد يوجد منه شيء شديد الحلاوة أحلى من التين ؛ لكنه لا ينفك في أواخر مضغه من طعم خشبية ما • وشجرته كبيرة كشجرة الجوز العاتية ويخرج من ثمره وغصنه اذا فسد لبن أبيض اذا طلى على ثوب أو غيره صبغه أحمر •

(١٧) هو حامد بن سميون (بفتح السين وضم الجيم) وكنيته • أبو بكر • له كتاب في الأدوية • ترقى حوالى سنة ١٠١٠/هـ م • راجع عنه • طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة •

(١٨) الرتيلاء - بتشديد الراء وفتحها ويسمى أيضا الرتيلا بلا همز وهو عشب ينبت في شمال إفريقيا وأوربا ويسمى أحيانا جذامير ومفرده جذمور أو جذمار ، وأوراقه تشبه أوراق الحشائش وأزهاره بيضاء متدلّية ، ويسمى الرتيلاء أيضا نبات زهرة العنكبوت ، من الفصيلة الزمبقية Liliace •• ولحق المعجم نفسه أن بذوره مدرة للطمث والبول وضد لدغ العقرب والعناكب السامة - معجم المصطلحات العلمية والفنية ليوسف خياط •

وخشبه تعممر به المساكن ويتخذ منه الأبواب وغيرها من الآلات الجافية. وله بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس * وقلما يتآكل هذا مع أنه خشب خفيف قليل اللدونة ويتخذ من ثمرته خل حاذق ونبيد حاذ *

قال جالينوس : الجميز بارد رطب فيما بين التوت والتين وهو رديء للمعدة ولبن شجرته له قوة مليئة تلتصق الجراح وتفسد الأورام ويلطخ على لسع الهوام ويحلل حساة الطحال وأوجاع المعدة ضمادا ، ويتخذ منه شراب للسعال المتقدم ونوازل الصدر والريه * وعمله بأن يطبخ في الماء حتى تخرج فيه قوته ويطبخ ذلك الماء مع السكر حتى ينعقد ويرفع * وقال أبو حنيفة : ومن أجناس التين تين الجميز وهو تين حلو رطب له معاليق طوال ويزيب ، وضرب آخر من الجميز حمله كالتين في الخلقة وورقه أصفر من ورق التين وتينه أصفر صفار وأسود ويكون بالقور ويسمى التين الذكر ، والأصفر منه حلو والأسود يدمى الفم وليس لتينه علاقة بل لاصق بالعود *

ومن ذلك البلسان (١٩) ، فإنه لا يوجد اليوم إلا بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر. ثخين ، وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنيته ورائحة عطرة وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعري. بأن تشدخ السوق بعد ما يحث عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ، ويفتقر شدخها الى صناعة بحيث يقطع

(١٩) البلسان : أورده يوسف خياط في بلسم دون أن يذكر أنه هو البلسان وقال أنه نبات زراعى عطري من المركبات أثبوبية الزهر * وضبطه معجم الشهابي بفتح الباء واللام وجعله مرادفا للخمان بفتح الخاء والميم ، أما المقابل الاجنبى فهو elder (Sambucus) .

القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ الى الخشب فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شيء * فاذا شدخه كما وصفنا أمهله ريشما يسيل لثاه (٢٠) على العود فيجمعه باصبعه مسحا الى قرن فاذا امتلأ صبه في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر ، وفي الجذب وقلة الندى يكون اللثا أنزر (٢١) ومقدار ما أخرج منه في سنة ست وتسعين وخمسائة ، وهي عام جذب ، نيف وعشرون رطلا * ثم تؤخذ القناني فتدفن الى القيظ وحمارة الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطف الدهن ثم يعاد الى الشمس ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أخدا ثم يرفعه الى خزانة الملك * ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجمل * وقال لي بعض أرباب الخبرة ان الذي يحصل من دهنه نحسو من عشرين رطلا ورأيت جالينوس يقول : ان أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر * ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئا البتة وقال نيقولاوس في كتاب النبات : ومن النبات ما له رائحة طيبة في بعض أجزائه ومنه ما رائحته الطيبة في جميع أجزائه كالبلسان الذي يكون في الشام بقرب بحر الزفت والبير التي يسقى منها تسمى بير البلسم وماؤها

(٢٠) في لسان العرب لابن منظور اللثى شيء يسقط من الشجر وقيل اللثى شيء تنضجه ساق الشجرة ، وقيل : اللثى ما دق من العلوك حتى يسيل فيجرى ويقطر * واللثى ما سال من ماء الشجر من ساقها وهناك من ينطقها لثا بالهمز *
(٢١) النزر أي القليل التافه ... بفتح النون وتسكين ما بعدها *

عذب * وقال ابن سميون انما يوجد في زماننا هذا بمصر فقط ويستخرج دهنه عند طلوع كلب الجبار، وهو الشعري، وذلك في شباط ومقدار ما يخرج ما بين خمسين رطلا الى ستين ويباع في مكانه بضعفه فضة * وكانت هذه الحال قد كانت في زمن ابن سميون وحكى عبد الرازق أن بدله دهن الفجل وهذا بعيد والبلسان الدهنى لا يثمر وانما تؤخذ منه فسوخ فتغرس في شباط فتعلق وتنمى وانما الثمر للذكر البرى ولا دهن له ويكون بنجد وتهامه وبرارى العرب وسواحل اليمن وبارض فارس ويسمى البشام ويربى قشره قبل استخراج دهنه فيكون نافعا من جميع السموم ، وأما خواصه ومنافعه فالأليق بها غير هذا الكتاب *

ومن ذلك القلقاس ، وهو أصول بقدر الخيار ومنه صغار كالأصابع يضرب الى حمرة خفيفة يقشر ثم يشقق على مثل السلجم (٢٢) وهو كشف مكتنز يشابه الموز الأخضر الفج في طعمه وفيه قبض يسير مع حرافة قوية وهذا دليل على حرافته ويبسه فاذا سلق زالت حرافته جملة وحدث له مع ما فيه من القبض اليسير لزوجة مغرية كانت فيه بالقوة ، الا أن حرافته كانت تخفيها وتستترها ولذلك صار غذاؤه غليظا بطيء الهضم ثقيل في المعدة ، الا أنه لما فيه من القبض والغلاصة صار مقويا للمعدة حابسا للبلطن اذا لم يكسر منه * ولما فيه

(٢٢) السلجم أو الشلجم كما ورد في معجم يوسف خياط للمصطلحات العلمية هو اللفت * وفي المعجم نفسه أن الكلمتين اطلقتا في الاصطلاح الحديث ، أي منذ القرن الماضي (التاسع عشر) على هذا النبات ؛ لأن بعض النباتيين يجعلونه هو واللفت نوعا واحدا ، والسلجم من الفارسية نبات زراعى دهنى من الفصيلة « الصليبية » * وإن صح ما ورد في المعجم يكون ما أشار اليه البغدادي ليس هو اللفت المعروف ، وانما بات شبيه به لأن البغدادي كتب كتابه سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٠ م * والمسألة تحتاج لبحث الاختصاصيين *

من اللزوجة والتغرية صار نافعا من سحج المعاء (٢٣) ، وقشره أقوى على حبس البطن من جرمه ؛ لأن قبضه أشد ويطبخ في السماقية (٢٤) وغيرها فيعود في المرقعة لزوجة يعافها من لا يعتادها ، ولكن اذا سلق وصبت سلاقتة ثم قلى بالدهن حتى يتورد فلا بأس به * والغالب على مزاجه الحرارة والرطوبة ، ويظهر من حاله أنه مركب من جوهرين : جوهر حار حريف يذهب بالطبخ وجوهر أرضي مائي ينمو بالطبخ * وذلك كما في البصل والثوم وما كان كذلك فهو نيئا دوائى ومطبوخا غذائى وقد رأيت به بدمشق لكن قليلا * ورأيت اذا يبس يرجع خشبيا كالقسط (٢٥) سواء * وأما ورقه فورق مستدير واسع على شكل خف البعير سواء لكنه أكبر منه ويكون قطر الورقة ما بين شبر أو شبرين أو ورقة قضيب مفرد في غلظ الاصبع وطول شبرين أو أزيد ونبات كل قضيب من الأصل الذى فى الأرض ، اذ ليس لهذا النبات ساق ولا ثمر أيضا وورق القلقاس ، شديد الخضرة رقيق البشرة شبيه بورق الموز فى خضرته ونعومته

(٢٣) سحج المعاء - خطأ مطبعي فيما يبدو ، والصحيح سحج المعى ، يقول ابن منظور : أخذ فى بطنه سحج اذا لان بطنه ، وسحج النعام أى ألقى ما فى بطنه ، وسحج يسحج اذا رقى ما يجيء منه من الغائط (مادة س ج ج) ، والمعنى بفتح الميم والعين وكذلك بكسر الميم وفتح العين من اصفاج البطن فيما يقول ابن سيده ، والجمع الامعاء ، والمعنى هو واحد المصارين ، وفى الحديث : « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة امعاء » ٠٠ من هذا يتضح وجود خطأ فى المخطوط أو لعله خطأ مطبعي لكننا نرجح الاحتمال الأول .

(٢٤) فى لسان العرب لابن منظور : السماق بتشديد الميم وفتحها من شجر الجبال وله ثمر حامض عتاقيد فيه حب صغار يطبخ أما الحبة الحامضة التى يقال لها العربرب (بفتح الباء) فهو السماق (بتشديد السين وضمها) الواحدة سماقة (بضم السين وتشديد الميم وفتحها) ، وقدر سماقية وعبرية بمعنى واحد (مادة : س م ق) *
(٢٥) خطأ فى المخطوط أو طبعة مجلة المصرى ، والصحيح قسطل ويسمى فى الشام الكستنة ويسمى فى مصر أبو فروة * شجر من الفصيلة البهلوطية ، له ثمر يؤكل مشويا وهو غنى بالنشأ .

ورونقه ونضارته • وقال ديوسقوريدس : ان لهذا النبات زهرا على لون الورد فاذا عقد عقد شيئا شبيها بالحراپ كأنه تفاحة الماء وفيه باقلى صغير أصغر من الباقل اليونانى يعلو موضعه المواضع التى ليس فيها باقلى فمن أراد أن يزرعه قائما ، يأخذ ذلك الباقل ويصيره فى كتل طين ويلقيها فى الماء فينبت • ورغم أنه يؤكل طريا ويابساً ، فإنه يعمل منه دقيق يشرب كالسويق ويعمل منه حسو فيقوى المعدة وينفع من الاسهال المرىء وسحوج الأمعاء (٢٦) • وان الشئ الأخضر الذى فى وسطه المر الطعم اذا سحق وخلط بدهن وقطر فى الأذن سكن وجعها •

وقال الاسراتيلي : أما نحن فشاهدنا له زهرا • قال : ورأيت أصل هذا النبات اذا خزن فى المنازل وجاء وقت نباته تفرع من الباقلى اللاصق به فروع وأنبت من غير أن يظهر له زهر ولا ثمر لكن لون الباقلاء نفسها كلون زهر الورد ؛ لأنها حين تبرز وتأخذ فى النبات يخرج ما يبرز منها حسن البياض يعلوه تورديسير • قال : وما وجدنا له جفافا يمكن معه أن يكون منه سويق ولا رأيناه السنة كلها الا رطبا مثل بصل النرجس وبصل الزعفران ونحوه ، قال : ولم نر وسطه هذا الأخضر الذى ذكره ديوسقوريدس ولا وجدناه السنة كلها الا كالموز الأخضر • أقول : كلا ، بل الحق ما قاله ديوسقوريدس وانه حتى يقبل السبحق ويمكن أن يتخذ منه السويق (٢٧) وهذا رأينا عيانا وانه اذا جف لا فرق بينه وبين

(٢٦) الصحيح سحج المعى أو الأمعاء كما أوضحنا فى حاشية سابقة •

(٢٧) السبحق لم نعثر عليه فى المصادر المتوفرة بين أيدينا أما السويق ففى لسان العرب لابن منظور السويق معروف ، والصاد فيه لغة ، والمجمع أسوقة وغيره • والسويق ما يتخذ من المحنطة والشعير ... •

الزنجبيل في المنظر، سوى أن القلقاس أكبر وتجد في طعمه حدة ولذعا وأقول عن حدس صناعي مبدؤ المشاهدة والسمع أن القلقاس زنجبيل مصرى أكسبته الأرض رطوبة فقلت حرارته وحدته كما أن الزنجبيل الزنجي والهندي أقوى وأحد من اليمنى ، وأهل اليمن يطبخون به كما يطبخ المصريون القلقاس لكن لا يستكثر منه جدا * ولقد سألت جماعة من التجار وأرباب المعرفة عن منبته باليمن وشكله فكلهم زعم أنه كالقلقاس ، غير أن القلقاس أكبر وكذلك ورقه أكبر من ورق الزنجبيل وقد شاهدته إذا يبس لا فرق بينه وبين الزنجبيل في الصورة مع حدة ، ولذع يسير * وقال له آخر أن نبات الزنجبيل يشبه نبات البصل ، مع أن القلقاس يكون في تلك البلاد وكأنه بستانى ، وقال على بن رضوان : القلقاس أسرع الأغذية استحالة إلى السوداء ، وقال غيره من أطباء مصر أن القلقاس يزيد في الباءة * وفي كل نظر لا يليق بهذا الكتاب *

ومن ذلك الموز وهو كثير باليمن والهند ورأيت بالخور وبدمشق مجلوبا ، وكونه من فراخ تظهر من أصل شجرته كما تظهر الفسلان (٢٨) من النخلة ، وتسمى المثمرة الأم فاذا أخذت ثمرتها قطعت هي أيضا وخلفها أكبر نباتها وترتفع قامته إلى قامتين وكأنها نخلة لطيفة ، وزعموا أن شجر الموز في الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل تجعل النواة في جوف القلقاسة وتغرس ، وهذا القول وإن كان ساذجا من دليل يشهد له فالبحس يسوغه * وذلك أنه تجد لشجرتة سعفا كسعف

(٢٨) الفسلان جمع الجمع لفسيلة ، أما الجمع فهو فسلل وفسيل ، والفسيلة هي الصغيرة من النخل فيما يقول ابن منظور *

النخل سواء ، الا انك ينبغي أن تتخيل الخوص اتصل بعضه ببعض ، حتى صار كأنه ثوب حرير أخضر قد نشر أوراقه خضرا ترف ريا وطراة ، وكأن الرطوبة اكتسبها من القلقاس والشكل اكتسبه من النخل ، وأنت تعلم أن تشقق سعف النخل الى الخوص انما كان من قبل اليبس الغالب على مزاج النخل . ولكثرة رطوبة الموز بقي سعفه متصل الخوص ولم يتشقق ، فعلى هذا يكون القلقاس له بمنزلة المادة والنخل بمنزلة الصورة . وأنت اذا تأملت خشب الموز وورقه بعد يبسه ألفيت فيه تلك الشظايا والخيوط التي تجدها في جذع النخل وسعفه ، الا أنك تجدها مشوبة برطوبة قد ألحمت بينها وملأت فرجها وان كان القلقاس لا ينفك من ذلك أيضا ويتبينه آكله مقلوا . وأما الثمر فانك تراه أعذاقا كأعذاق النخل قد تحمل شجرته خمسمائة موزة فصاعدا ، ويكون في منتهى العذق موزة تسمى الأم ليس فيها لحم ولا تؤكل ، واذا شققت وجدت مؤلفة من قشور كالبصل كل قشرين منها متقابلان يحتوى كل واحد منهما على نصفها طولا وتحت كل قشر عند القاعدة زهر أبيض بقدر الفستق أو كزهر النارنج (٢٩) عدده احدى عشرة في صفيين لا ينقص عن هذا العدد ولا يزيد الا واحدا نادرا ، فهذا القشر بمنزلة كبرى الطلع (٣٠) ، والزهر بمنزلة الطلع نفسه وتنشق هذه القشور من تلقاء أنفسها

(٢٩) النارنج بفتح الراء (وينطقها العامة بكسر الراء ، وأحيانا يبدلون النون الفا معدودة) جعل له معجم الشهابي مقابلا انجليزيا Seville orange أو Sour orange أو bitler orange ، ثماره لا تؤكل مباشرة في مصر وانما تملح وتخلل ويسمى في الشام أبو صفير ، وفي مصر يطعمون به بعض أفرع شجر البرتقال أو الليمون لمنتج الشجرة ليمونا وتنتج بعض فروعها نارنج ، وكذلك شجر البرتقال (٣٠) كبرى بضم الكاف أو فتحها أو كسرهما وهو قنابة تحيط ببعض أشكال الأزهار ككافور الطلعة في النخل spathe ، وتطلق المصانير العربية على الطلع أحيانا كلمات مثل العذاق (بكسر العين) والكباسة (بكسر الكاف) والقنو (بكسر القاف) ، ومفرد الطلع : الطلعة ، والمقصود هنا أنه يحيط به قنابة تسمى الكافور أو الكفري .

على التدرج الأعلى فالأعلى ؛ فيظهر ذلك الزهر أبيض بمنزلة
البلح وفيه رطوبة حلوة فيتساقط وتعمد عنه الموزة صغيرة
فاذا أخذت في النمو قليلا انشق قشر آخر على الرسم ولا يزال
كذلك حتى ينتهي العنق ، وتجد قشر الموزة كقشر الرطبة ،
الا أنه غليظ جدا بما اكتسبه من مادة القلقاس ، ولحمها
حلو فيه تفاهة كأنه رطب مع خبز فالحلاوة له من الرطب
والتفاهة من القلقاس . وأما شكلها ففى شكل الرطبة ،
الا أنها بقدر الخيار الكبيرة تميل الى الصفرة والبياض
فالصفرة من الرطب والبياض من القلقاس ، وحين ما يقطع
يكون شديد الخضرة جدا لا يصلح للأكل فاذا دفن أياما
اصفر وصلاح للأكل ، ثم انك تجده شحمة واحدة ليس فيها
نوى ولا ما يرمى سوى القشر فقط بل تراه كأنه قطعة
خبيص (٣١) ناعم المضغ يسترط (٣٢) بسهولة ، واذا
أنت تأملتة فى ضياء ، ألفيت فى وسطه جبا كثيرا أصغر من
الخردل يضرب الى السواد والشقرة شبيه بحب التين ، لكنه
فى غاية اللين فهذا كأنه رسم نوى الرطب ، الا أنه لزيادة
رطوبته لان وتفرق واختلط باللحم وانسأغ معه فى الاكل .
وله رائحة عطرة لا بأس بها فيها خمرة ما والجشأ العارض
لأكله بعد أخذه فى الهضم طيب الرائحة وهو حار رطب
ورطوبته أزيد من حرارته وكأنه حار فى الأول رطب فى

(٣١) الخبيص او الخبيصة بفتح الخاء والمقصود كل شئ كالمرى ، أى شمارا طبخت
بالسكر وقليل من الماء فاختلطت أجزاؤها وماعت قليلا .

(٣٢) سرت (بفتح السين وكسر الراء) الطعام أو الشئ سرتا وسرطانا أى بلعه
واستقرطه وازدرده ابتلعه كما فى لسان العرب ، ومن الواضح ان اللفظ حرف فى
العامية فأصبح زلط أو ظلط (بفتح الزاى أو الظاء) ورجل زلط أى كثير الأكل وبالفصحى
سراط ويبدو أن التحريف العامى كان له هدف وهو عدم الخلط بين فعل سرت بمعنى
ابتلع وفعل آخر قريب مخرج الحروف بمعنى أخرج ريحا .

الثانية يزيد في المياه ويدرب البول ويحدث تفجأ (٣٣)، ولا يبعد في طبعه هذا عن الرطب الا بكثرة رطوبته التي اكتسبها من القلقاس . فهذا ان كان من تركيب الصناعة فقد صدق الخبر الخبر . وان كان من تركيب الطبيعة فان لها ايضا تركيبات عجيبة متقنة من أصناف الحيوان والنبات فتكون الموز من جملتها . وقال أبو حنيفة : الموز معادته عمان وتنبت الموزة نبات البردية لها عنفرة غليظة وورقة عريضة نحو ثلاث أذرع في ذراعين ليست بمنخرطة على نبات السعف لكن شبه المربعة . وترتفع الموزة قامة باسطة ولا تزال فراخها تنبت حولها واحدة أصغر من الأخرى ، فاذا أجرت وذلك ادراك موزها ، قطعت الأم حينئذ من أصلها ، وتؤخذ قنوها (٣٤) ويطلع أكبر فراخها فيصير هو الأم وتبقى البواقي فراخا لها ولا تزال على هذا أبد الدهر . ولذلك قال أشعب (٣٥) لابنه فيما يروى عنه الأصمعي (٣٦) : يا بني لم لا تكون مثلي ؟ فقال أنا مثل الموز لا تصلح حتى تموت أمها . ومن نبات الموز الى اثمارها شهران وبين اطلاعها (٣٧) الى اجرائها أربعون يوما . والموز موجود في

(٣٣) الصحيح غالبا نفجا (بالنون) بمعنى (اننفاخا) ، راجع مادة (نفج) في لسان العرب .

(٣٤) القنو جعله الخطيب في معجمه مرادفا للمكاسة والطلع .

(٣٥) هو أشعب بن جبير الطماع أو الطامع . ويقال له ابن حميدة . وهو من ظرفاء المدينة وكان مولى لعبدان بن الزبير . قدم بغداد أيام المنصور . انظر . هوات الوفيات ج ١ . تاريخ بغداد .

(٣٦) هو عبد الملك بن قريظ (بضم القاف وفتح الراء) بن علي بن أصمع الباهلي ، يعرف بابي سعيد الأصمعي ولد ومات بالبصرة . كان كثير التطواف بالبوادى ، راوية شعر مشهور . من كتبه : (الأضداد) و (خلق الانسان) و (الفرق) أي الفرق بين أسماء الأعضاء من الانسان والحيوان ، و (الخيل) ، و (النبات والشجر) توفي

٢١٦ هـ / ٨٣١ م . راجع وفيات الأعيان لابن خلكان

(٣٧) اطلاعها : أي ظهور الطلع بها .

أوطائه السنة كلها ويكون في القنو من أقنائها ما بين ثلاثين موزة الى خمسمائة موزة . ورأيت عند بعض تجار الهند حصرا حسنة لطيفة موشاة ذات وجهين ألوانها أحسن الألوان وأصباغها زهر خالصة كأنها ألوان الحرير عرض الحصر منها نحو ذراعين ونصف وهو أسلة (٣٨) واحدة ليس فيه وصل فجعلت أعجب من طول الأسل الذي يسمى بمصر السمار ، فذكر لي أنه ليس به وإنما هو متخذ من ورق الموز الهندي بأن يؤخذ العسيب (٣٩) فيشقق ويجفف ثم يصبغ وينسج منه هذه الحصر . ويباع الحصر منها في المعبر بدينارين وفيها ما يباع بدرهمين وأراني من كلا الصنفين .

وأما المحمضات فيوجد بأرض مصر منها أصناف كثيرة لم أرها بالعراق ، من ذلك أترج (٤٠) كبار يعز وجود مثله ببغداد ، ومن ذلك أترج حلو ليس فيه حماض ، ومن ذلك الليمون المركب وهو أصناف أيضا ويوجد فيه ما هو بقدر البطيخة ، ومن ذلك الليمون المختم وهو أحمر شديد الحمرة أقتنى حمرة من التارنج شديد الاستدارة مفلطح من رأسه وأسفله مفضوخ فيها بختمين .

(٣٨) الأسل ويسمى أيضا الغرز ومن أصنافه الغضبور (بتسكين الضاد وفتح الواو) وهو السمار في مصر ، من الفصيلة الأسلية وله اقصان كثيرة دقاق بلا أوراق . سوقه خضراء ذات أطراف حادة غير متفرعة ولا خشب فيها . ينبت في الماء أو الأرض الرطبة وتصنع منه الحصر والغرابيل . وأنواع الأسل كثيرة وصفاتها متباينة لكننا اقتصرنا على النوع المصري لانه المقصود . معجم يوسف خياط : المصطلحات العلمية والفنية
عربي - انجليزي - فرنسي / مادة اسل .

(٣٩) الجمع عسب بضم العين والميم ، اصل الأوراق .
(٤٠) أترج ، وترنج (بضم التاء والراء) ويسمى أيضا كباد (بضم الكاف وفتح الباء وتشديدها) ومثك (بضم الميم وتشديد التاء) ، لكن الكلمة الشائعة في مصر هي أترج . ثمره كبير أصفر لا يؤكل .

ومن ذلك ليمون البلسم وهو فى قدر الابهام وكالبيضة
المطلولة (٤١) ، وفيه ما هو مخروط صحيح يبتدىء من
قاعدة وينتهى الى نقطة ، وأما لونه وريحه وشحمه وحماضه
فلا يغادر من الأترج شيئا .

وقد يوجد أترج فى جوفه اترج بقشر أصفر أيضا ،
وخبرنى صادق أنه وجد فى جوف أترجة سبع أترجات صفار .
كل واحدة يحيط بها قشر تام والذى رأيته أنا أترجة فى
جوفها أترجة ليست تامة ، وقد رأيت منه شيئا بالغور وهذا
الأترج المداخل انما يكون فى ذى الحماض . ثم ان هذه
الأنواع يركب بعضها على بعض فيتولد منها أصناف كثيرة
جدا .

ومن ذلك صنف من التفاح يوجد بالاسكندرية ببستان
واحد يسمى بستان القطعة وهو صفار جدا قانى الحمرة ،
وأما رائحته فتفوق الوصف وتعلو على المسك وهو قليل جدا .
وأما القرط (٤٢) فيسمى بالعراق الرطبة وبالشام
الفضة وبالفارسية أسفست .

وأما النخل فكثير لكن اذا قيس ثمرته بثمره نخل العراق
وجدت كأنها قد طبخت طبخة ، خرج بها معظم حلاوتها
وبقيت ناقصة القوة ، ومما يسميه أهل العراق القسب
يسميه أهل مصر التمر ، وأما التمر بالعراق فيسمونه
العجوة وقلما تجد عندهم ما يشابه تمر العراق الا نادرا
ويكون ذلك نخيلا معدودة تهدي تحفة .

(٤١) لعله يقصد البيضة المسلوقة التى تم تقشيرها ثم ضغط عليها ، وفى لسان
العرب مادة (ط ل ل) « المطلولة جلدة مودونة بلبن محض ياكلونها » وقد استنتجنا
المعنى .

(٤٢) القرط بضم القاف البرسيم ، والقرط بكسر القاف الكراث ، وبمراجعة هذه
المادة فى معجم يوسف خياط يصعب علينا معرفة ما يقصده البغدادى .

وأما الماش (٤٣) وهو المجد ، فلا يزرع بمصر أصلاً وإنما يوجد عند العطارين مجلوباً من الشام ويباع بالأوقى للمرضى . وأما الذرة والدخن فلا يعرفان بمصر اللهم الا بالصعيد الأعلى وخاصة الدخن .

ومما تختص به مصر الأفيون وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد وكثيراً ما يغشه جناته وربما غشوه بالعدرة (٤٤) وعلامة الخالص منه أن يذوب في الشمس ويقد في السراج بلا ظلمة ، وإذا طفى تكون رائحته قوية والمغشوش يسوس سريعاً . وأرسطو ينهى عن خلطه بدواء العين والأذن لأنه يعمى ويصم .

ومن ذلك الاقاقيا ، وهو عصارة ورق شجر القرظ (٤٥) وثمره يستخرج مأؤه بالدق والمصر ويجعل في أوان مـُرَحْرحة تلقاء الشمس حتى يغلظ ثم يقرص . هذا هو الخالص الخاص وأما العام الذي يجلب الى البلاد ، فانه يؤخذ القرظ فيطحن ويعجن بماء الصمغ ثم يقبض ويختم ويجفف ، وشجرته هي السنط وتسمى الشوكة المصرية وورقها هو القرظ بالحقيقة ويدبغ به الجلود ، وعصارة القرظ التي يتخذ منها الاقاقيا تسمى رب القرظ ونساء مصر يشربن عصارتها ونقيعه للاسهال .

(٤٣) ماش : ورد في معجم الشهابي تحت المسمى العلمي *Vicia Nilotica* واسماء أيضاً *Phaseolus aureus* ولا بد أن الماش الذي أشار اليه البغدادي غير الماش الذي أشارت اليه المعاجم العلمية ، لأن ماش البغدادي نبات طبي ، وماش المعاجم نبات قرني يؤكل وهو قاصوليا أو لوبيبا ونبات البغدادي يباع بالأوقية ونبات المعاجم لا يباع بهذا الميزان الدقيق ، وماش البغدادي لا يزرع في مصر وإنما يجلب من الشام وماش المعاجم منتشرة زراعته في مصر .

(٤٤) العذرة نبات الكرم أو العنب ، وربما كان هو المقصود . معجم يوسف خياط/مادة

(عذر) .

(٤٥) هو شجر السنط المعروف .

والسنط شجر عظام جدا له شوك كثير حديد صلب
أبيض وله ثمر يسمى خروب القرظ مدور مسطوح مشاكل
لحب الترمس ، الا أنه متصل كقرون اللوبيا وفي داخله حب
صغار ، واذا اتخذ الاقاقيا من القرظ قبل كمال نضجه كان
أكثر قبضا وأقوى على حبس الطبيعة ، واذا اتخذ مما استحکم
نضجه لم يقو على حبس البطن وعلامته أن يكون شديد السواد
مشرق اللون ، وقال الدينوري : القرظ شجر عظام كشجر
الجوز وخشبه صلب كالحديد واذا قدم اسود كالآبنوس ،
وورقه يشبه ورق التفاح ، وله حيلة مثل قرن اللوبيا داخلها
حب يوضع في الموازين ويدبغ بورقه وثمره ومنايته القيعان
والجبال وحيلة القرظ أصفر من علف الطلح ، واذا رعته الابل
احمرت أفواهها وأدبارها حتى أبعادها فتحسبها عصفرا قد
جمع وتسمن عليه . وما كان من القرظ بأرض مصر فهو
السنط وهو ذكي الوقود قليل الرماد ، وله برمة صفراء ليس
لها رائحة زكية كبرم العراق .

ومن ذلك النبقوص وهو قثاء صغار لا يكبر ولا يعدو
أطوله الفتر وأكثره في طول الاصبع ، وهو أنعم من القثاء
وأحلى ولا شك في أنه صنف منه وكأنه الضفائيس ، أما
القتد فهو الخيار .

ويوجد بمصر بطيخ يسمى العبدلي والعبدلاوى ، قيل
انه نسب الى عبد الله بن طاهر (٤٦) والى مصر عن المأمون .
وأما المزارعون فيسمونه البطيخ الدميرى منسوباً الى

(٤٦) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق (الخراساني بالولاء) من
أشهر الولاة في العصر العباسي . أصله من خراسان . تولى إمرة مصر سنة ٢١١ هـ ولم
يبكث فيها غير سنة ثم نقل الى ديار بكر ثم تولى إمرة خراسان . اثنى عليه المؤرخون لعلمه
ومعرفته وكرمه . تولى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - أحداث
٢٣٠ هـ .

دميرة (٤٧) قرية بمصر وله أعناق ملتوية وقشره خفيف وطعمه مسخ قلما يوجد فيه حلو ويندر فيه ما وزنه ثلاثون رطلا وأكثر . والغالب عليه ما بين رطل الى عشرة أرطال ، وأهل مصر يستطيبنه على البطيخ المولد المسمى عندهم بالخراساني والصيني ويزعمون أنه نافع ، ويأكلونه بالسكر وطعمه أشبه شيء بالصنف المسمى بالعراق الشلنق ؛ لكنه ألذ منه وأنعم وشكله شكل يقطين العراق ، الا أن لونه حسن الصفرة جدا وفي ملمسه حراشة وتخيش ، وصغاره قبل أن تبلغ تكون كلون اليقطين وشكله وكطعم القثاء ، لها بطون وأعناق وتباع بالفقوص وتسمى العجور ، وأخبرني مزارعه أن العادة جارية بأن ينقى حقله كل يوم فما يرى مزارعه أن يقطعه صغيرا أخضر قطعه وباعه بالعجور ، وما يرى أنه يتركه حتى يكبر ويبلغ ويصفر كان منه البطيخ العبدلي وقلما تجد في بطيخ مصر ما هو صادق الحلاوة ؛ لكنه لا يوجد فيه مدود ولا فاسد بل الغالب عليه التفاهة المائية . وجميع أصناف البطيخ بها يباع بالميزان سوى البطيخ الأخضر . وأما البطيخ الأخضر ، فإنه يسمى بالغرب الدلاع وبالشام البطيخ الرنشي وبالعراق البطيخ الرقي ويسمى أيضا الفلسطيني والهندي . وأما اليقطين الذي يقصره الجمهور على الدباء ، فيكون بمصر مستطيلا وفي شكل القثاء ويبلغ في طوله الى ذراعين وفي قصره الى شبر . وأما الباقل الأخضر المسمى عندهم بالفول ، فإنه يتواصل نحو ستة أشهر ، وكذلك الورد والياسمين يدوم جميع السنة ولا تزال شجرته مزهرة ومنه أبيض وأصفر والأبيض أكثر وأعطّر ومنه يتخذ دهن الزنبق بدمياط .

(٤٧) قرية دميرة مركز طلخا ، وكان اسمها الديميرتين . القاموس الجغرافي للبلاد

المصرية . ق ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

خاصة ، وكذلك الليمون وانما يقل ويكثر فقط . والبنفسج
بمصر عطر جدا لكن لا يحسنون اتخاذ دهنه ولا معجونه .
والسفرجل بمصر رديء جدا صغير عفص غال . وأما تفاحها ،
فلا بأس به وان كان رديا ، وأما رمانها ففي غاية الجودة ،
الا أنه ليس بصادق الحلاوة .

وأما القراسيا ، فلا يوجد بمصر بل بالشام وبلاد الروم
وغيرهما . وانما بمصر صنف من الأجاص صغار حامض
يسمونه القراسيا ومثل هذا الصنف بدمشق يسمونه خوخ
الدلب ؛ لأن الأجاص بالشام يسمى خوخا والخوخ دراقنا
والكمثرى أجاصا .

ومما يكثر بمصر شجر خيار شنبر وهو شجر عظام شبيه
بشجر الخروب الشامي وزهره كبير أصفر ناضر ذو رواء
وبهجة فاذا عقد تدلى ثمره كالمقارع الخضر . وبها شجر
اللوز : والسدر بها كثير وثمره النبق حلو جدا ، والتيل
يكثر بها ولكنه دون الهندي .

الفصل الثالث

قيما تختص به من الحيوان

من ذلك حضانة الفراريج (١) بالزبل، فانه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضا، وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك . ويسمى الموضع معمل الفروج . وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتى ذكرها ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتا في كل بيت ألفا بيضة ويسمى بيت الترقيد . وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجا منه وفوقه ساسي (٢) وهو مشاقة الكتان وحطبه . ومن فوق ذلك الطين ثم يرمص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعله وأسفله ؛ حتى لا يخرج منه بخار وينبغي أن تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكى صدر الدجاجة . ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساسي طول

(١) الكتاكيت .

(٢) الساس أو الساسي عشب جاف وهو المقصود هنا . وفي لسان العرب لابن منظور السوسى والساس حشيشة وقيل شجر لا الثنان له .

الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو أربع أصابع . ويكون هذا الحوض لوحا واحدا تبسطه على أرض معتدلة . هذا الحوض يسمى الطاجن فإذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قبالة على الطرف الآخر تركيبا محكما ، وأخذت وصولهما بالطين أخذنا متفقا وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه . وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحا الدجاجة ، ثم يفرش البيت بقفّة تبين ويمهد ويفرش فوقه ضب أو ديس ، يعنى حصيرا برديا على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه . ومقدار ما يسع هذا البيت ، المفروض ألفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد وان ضاقت الحضانة تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ثم تسد الطاقة بساسى والشباك أيضا بساسى وفوقه زبل حتى لا يبقى فى البيت منفس للبخار . وتلقى فى الطاجنين من زبل البقر اليابس (٣) قفتين وذلك ثلاث ويبات (٤) وتوقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يرجع رمادا وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك ، وتعتبر حرارته . وهذا الفعل يسمى الذواق فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات فى ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله . وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدتها اياها بعينها وهذا يسمى السماع الأول ، فإذا صار الزبل رمادا أزلته وتركته بلا نار الى نصف

(٣) استخدم البغدادي مصطلحا غير مصرى ، فالصريون لا يسمونه زبل البقر وإنما جلة (بكسر الجيم وتشديد اللام وكسرها) وهو روث البقر أو الجاموس يابس ، ويستخدم كوقود .

(٤) والمفرد ويبة . مكيال معروف ، ولا زال يرد فى كلام الفلاحين للدلالة على الكثرة ، كتولهم « هذا الشيء بالويبة » أى كثير .

النهار ان كان ترقيده بكرة * وان كان ترقيده من أول الليل
 حرسته الى أن تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة ثم تخلى
 الطاجنين من النار الى بكرة ، ثم تجعل فى الطاجن الذى على
 باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفى الطاجن الذى على
 صدر البيت قدحين ونصفا ومد الزبل بمروود غليظ واطرح
 فى كل منهما النار فى موضعين منه وكلما خرجت من البيت
 بعد تفقده فأرخ الستر ، واياك وأن تغفل عنه لئلا يخرج
 البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل * واذا كان وقت العشاء
 وصار الزبل رمادا ونزل الدفء الى البيض ، أسفل البيت ،
 فغير الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول، وأنت كل وقت
 تلمس البيض وتدوقه بعينك ، فان وجدت حرارته زائدة عن
 الاعتدال تلذع العين ، فاجعل مكان ثلاثة الأكياس لطاجن
 الباب كيلين وربعا ، وفى طاجن الصدر كيلين فقط ولا تزال
 تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع
 الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخصوص بمشيئة الله
 وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان، ثم تدخل البيت بالسراج
 وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج ،
 فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ ، والتى تراها شبه شراب
 أصفر فى زجاج لا عكر فيه فهى لاح بلا بذر وتسمى الأرملة
 فأخرجها فلا منفعة فيها، ثم عدل البيض فى البيت بعد تنقيته
 وأخرج اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح * ثم تصبح بعد
 التلويح تنقص الزبل من العيار الأول ملء كفك من كل
 حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم
 يبق من الزبل شئ ، فحينئذ يكمل الحيوان ويشعرن ويتفتح،
 فاقطع اذ النار عنه فان وجدته زائد الحرارة يحرق العين
 فافتح الطاقة التى على وجه الباب وأبقها كذلك يومين ثم ذقه
 على عينك فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك

وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذى فى الصدر الى جهة الباب والبيض الذى فى جهة الباب ترده الى الصدر حتى يحمى البارد الذى كان فى جهة الباب ويستريح الحار الذى فى الصدر : يشم الهواء فيصير فى طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد ، فيعتدل مزاجه وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء ، وتستمر على هذا التدبير دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل الى تمام تسعة عشر أيضا فان الحيوان ينطق فى البيض بقدره الله تعالى وفى يوم العشرين يطرح بعضه ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح وعند تمام اثنين وعشرين يوما يخرج جميعه ، وأحمد الأوقات لعمله أمشير وبرمهاث وبرمودة ، وذلك فى شباط وآذار ونيسان ، لأن البيض فى هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين، وينبغى أن يكون البيض طريا وفى هذه الأشهر يكثر البيض أيضا (٥) .

ومن ذلك الحمير ، والحمير بمصر فارهة جدا ، وتركب بالسروج وتجرى مع الخيل والبغال النفيسة لعلها تسبقها ، وهى مع ذلك كثيرة العدد ومنها ما هو غال بحيث اذ ركب بسرجه اختلط مع البغلات ، يركبه رؤساء اليهود والنصارى ويبلغ ثمن الواحد منها عشرين دينارا الى أربعين .

وأما بقرهم فعظيمة الخلق حسنة الصور ، ومنها صنف هو أحسنها وأغلاها قيمة يسمى (البقر الخيسية) وهى ذوات قرون كأنها القسى غزيرات اللبن .

(٥) أشار الرحالة جوزيف بئس (الحاج يوسف) الى هذه الطريقة نفسها بعد ذلك بخمسة قرون تقريبا ، وقد اثار عجبه ، وقد ترجمت هذه الرحلة ونشرت فى سلسلة الالف كتاب الثانى بعنوان رحلة جوزيف بئس الى مصر والحجاز .

وأما خيلها فعتاق سابقة ومنها ما يبلغ ثمنه ألف دينار الى أربعة آلاف ، وهم ينزون الخيل على الحمير والحمير على الخيل فتأتى البغلة وأما أتان ؛ ولكن هذه البغال لا تكون عظيمة الخلق كالتى أمهاتها مهورة ؛ لأن الأم هى التى تعطى المادة •

ومن ذلك النماسيح • والتماسيح كثيرة فى النيل وخاصة فى الصعيد الأعلى وفى الجنادل فانها تكون فى الماء وبين صخور الجنادل كالودود كثرة وتكون كبارا أو صغارا ، وتنتهى فى الكبر الى نيف وعشرين ذراعا طولا ، وتوجد فى سطح جسده مما يلي بطنه سلعة كالبيضة تحتوى على رطوبة دموية وهى كنافجة المسك فى الصورة والطيب ، وخبرنى الثقة أنه يندر فيها ما يكون فى غلو المسك لا ينقص عنه شيئا والتمساح يبيض بيضا شبيها ببيض الدجاج ، ورأيت فى كتاب منسوب الى أرسطو ما هذه صورته ، قال : التمساح كبده تهيج الجماع وكليتاه وشحمه فى ذلك أبلغ ولا يعمل فى جلده الحديد ومن فقار رقبتة الى ذنبه عظم واحد ولهذا اذا انقلب على ظهره لم يقدر أن يرجع ، قال : ويبيض بيضا طويلا كالاوز ويدفنه فى الرمل ، فاذا أخرج كان كالحراذين فى جسمها وخلقتها ثم يعظم حتى يكون عشر أذرع ويبيض ستين بيضة ؛ لأن خلقته تجرى على ستين سنا وستين عرقا واذا سفد (٦) مئى ستين مرة ، وقد يعيش ستين سنة •

ومن ذلك الدلفين ، ويوجد فى النيل وخاصة قرب تنيس (٧) ودمياط •

(٦) قال ابن منظور • السفاد تزو الذكر على الأنثى • وقال الأصمعى يقال للحيرانات كلها سفد (بفتح السين والفاء أو كسر الفاء) انشاء •

(٧) من البلاد المدرسة بين الفرما ودمياط ، وكانت جزيرة ببحيرة المنزل • القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد بهزى / ق ١ ، صص ١٩٧ - ١٩٨ •

ومن ذلك الاسقنقور (٨) ويكون بالصعيد وبأسوان كثيرا ويكون من نتاج التمساح فى البر ، وهو صنف من الورل بل هو ورل الا أنه قصير الذنب ، والورل والتمساح والحردون والاسقنقور وسميكة صيدا لها كلها شكل واحد ، وانما تختلف بالصغر والكبر والتمساح أعظمها وسميكة صيدا أصغرها تكون بقدر الاصبع وتصلح لما يصلح له الاسقنقور من تسخين الأعضاء والانعاظ ، وكان التمساح ورل بحرى والورل تمساح برى والجميع يبيض بيضا * السقنقور يكون بشطوط النيل ومعيشتة فى البحر السمك الصغار وفى البر القطا ونحوه * ويستترط غذاءه استراطا (٩) ويوجد لذكورته خصيان كخصى الديكة وفى مقدارهما ومواقعهما ، واناثة تبيض فوق العشرين بيضة وتدفعها فى الرمل فيكمل كونها بحرارة الشمس فعلى هذا انما هو نوع برأسه وقال ديوسقوريدس انه يكون بنواحى القلزم وبمواقع من بلاد الهند وبلاد الحبشة ، ويفارق الورل بماواه فان الورل جبلى والسقنقور برى مائى ؛ لأنه يدخل فى ماء النيل * ثم ان ظهر الورل خشن صلب وظهر السقنقور لين ناعم ولون الورل أصفر أغبر ولون السقنقور مديح بصفرة وسواد ، والمختار من الاسقنقور انما هو الذكر دون الأنثى ويصاد فى الربيع ، لأنه وقت هيجانه للسفاد (١٠) ، فاذا أخذ ذبح فى مكانه وقطعت أطرافه ولا يستقصى قطع ذنبه ، ويشق جوفه ويخرج حشوه الا كشيته وكلاه ثم يحشى ملحاً ويخاط ويعلق فى الظل حتى يجف ويرفع ويسقى

(٨) السقنقور من رتبة العطاء قصيرات اللسان * انظر معجم يوسف خياط

الاذن ذكره *

(٩) أى يبتلعه أو يزدرده * ابن منظور

(١٠) أى التزاوج - انظر حاشية سابقة *

من كلاه وممتنه وشحمه وسرته من مثقال الى ثلاثة مثاقيل بماء العسل أو بمطبوخ أو بصفرة بيض نيمرشت (١١) وحده أو مع بزر جرجير وخصى ديوك مجفف مدقوق ، وقد يفعل ملحه ذلك اذا خلط بالأدوية البائية ، وقد يركب مع غيره من الأدوية الا أن استعماله مفردا أقوى له .

ومن ذلك فرس البحر وهذه توجد بأسافل الأرض وخاصة ببحر دمياط ، وهو حيوان عظيم الصورة هائل المنظر شديد البأس ، يتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر به منها ، وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس لكنه ليس له قرن وفي صوته صهلة تشبه صهيل الفرس بل البغل ، وهو عظيم الهيئة ، هريت الأشداق ، حديد الأنياب ، عريض الكلكل ، منتفخ الجوف ، قصير الأرجل ، شديد الوثب ، قوى الدفع ، مهيب مخوف الغائلة ، وخبرني من اصطادها مرات وشقها وكشف عن أعضائها الباطنة والظاهرة أنها خنزير كبير وأن أعضائها الباطنة والظاهرة ، لا تغادر من صورة الخنزير شيئاً الا في عظم الخلقة ، ورأيت في كتاب ينطواليس في الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورته ، قال : خنزيرة الماء تكون في بحر مصر وهي تكون في عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه خف الجمل . قال : وشحم متنها اذا أذيب ولت بسويق وشربته امرأة أسمنها حتى تحوز المقدار . وكانت واحدة ببحر دمياط قد ضربت على المراكب تفرقها وصار المسافر في تلك الجهة مغرراً ، وضربت أخرى بجهة أخرى على الجواميس والبقر وبنى آدم تقتلهم وتفسد الحرث والنسل وأعمل الناس في قتلها كل حيلة من نصب الحبال الوثيقة

(١١) لم نهت الى تعريف لهذا الطائر وربما كان هناك خطأ في النسخ .

وحشد الرجال بأصناف السلاح وغير ذلك فلم يجسد شيئاً فاستدعى بنفر من المريس - صنف من السودان - زعموا أنهم يحسنون صيدها وأنها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق فتوجهوا نحوها فقتلوها في أقرب وقت وبأهون سعى ، وأتوا بها الى القاهرة فشاهدتها فوجدت جلدها أسود أجرد ثخيناً وطولها من رأسها الى ذنبها عشر خطوات معتدلات ، وهى فى غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات وكذلك رقبتها ورأسها وفى مقدم فمها اثنا عشر ناباً ستة من فوق وستة من أسفل المتطرفة منها نصف ذراع زائد والمتوسط أنقص بقليل ، وبعد الأنياب أربعة صفوف من الأسنان على خطوط مستقيمة فى طول الفم فى كل صف عشرة كامثال بيض الدجاج المصطف صفان فى الأعلى وصفان فى الأسفل على مقابلتهما . واذا فغر فوها وسع شاة كبيرة وذنبها فى طول نصف ذراع زائد أصله غليظ وطرفه كالاصبع ، أجرد كأنه عظم شبيه بذنب الورل وأرجلها قصار طولها نحو ذراع وثلاث ولها شبه بخف البعير ، الا أنه مشقوق الأطراف بأربعة أقسام وأرجلها فى غاية الغلظ وجملة جثتها كأنها مركب مكبوب لعظم منظرها . وبالجمله ، هى أطول وأغلظ من الفيل ، الا أن أرجلها أقصر من أرجل الفيل بكثير ولكن فى غلظها او أغلظ منها .

ومن ذلك السمكة المعروفة بالرعاد ، لأنه من أمسكها وهى حية ارتعد رعدة لا يمكنه معها أن يتماسك ، وهى رعدة بقوة وخدر شديد وتنمل فى الأعضاء وثقل بحيث لا يقدر أن يملك نفسه ولا أن يمسك بيده شيئاً أصلاً ويتراقى الخدر الى عضده وكتفه والى جنبه بأسره حينما يلمسها أيسر لمس فى أسرع وقت . وخبرنى صيادها أنها اذا وقعت فى الشبكة ، اعترى الصياد ذلك اذا بقى بينها وبينه مقدار شبر أو أكثر

من غير أن يضع يده عليها وهي اذا ماتت بطلت هذه الخاصة منها . وهي من السمك الذي لا تفليس له ولحمه قليل الشوك كثير الدسم ولها جلد ثخين في ثخن الاصبع ينسلخ منها بسهولة ولا يمكن اكله . ويوجد فيها الصغير والكبير ما بين رطل الى عشرين رطلا وذكر من يكثر السباحة بنواحيها أنها اذا مست بدن السابح خدر الموضع أين كان ساعة بحيث يكاد يسقط . وتكثر بأسافل الأرض وبالاسكندرية .

وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة ؛ لأنه يجتمع اليهم سمك النيل وسمك البحر الملح ولا يفى القول بنعتها لكثرة أصنافها واختلاف اشكالها والوانها ، ومنها الصنف المسمى عندهم شعبان الماء وهي سمكة كالحية سواء . طولها ما بين ذراع الى ثلاث أذرع .

ومنها السرب ، وهي سمكة تصاد من بحر الاسكندرية يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة ، ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها والأحداث المضحكة فيها مشهورة .

ومن ذلك الترسية - وتسمى لجاة - وهي سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير ، الا أن جفنتها - أعنى عظم ظهرها - كالترس له أفاريز خارجة عن جسمها نحو شبر ، ورأيتها بالاسكندرية يقطع لحمها ويباع كلحم البقر .

وفى لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان ، وتخرج من جوفها نحو أربعمئة بيضة كبيض الدجاج سواء ، الا أنه لين القشر . واتخذت من بيضها عجة فلما جمد ، صار ألوانا ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيها بألوان اللحم ، ومن ذلك السرلينس ، وهو صدف مستدير الى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء ذات نكتة سوداء يعافها الناظر وفيه ملوحة عذبة زعموا ويباع بالكيل .

الفصل الرابع

فى اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشئ لم أر ولم أسمع بمثله فى مثلها فأقتصر على أعجب ما شاهدته •

فمن ذلك الأهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها • وهى كثيرة العدد جدا وكلها بين الجيزة وعلى سمت مصر القديمة (١) وتمتد فى نحو مسافة يومين • وفى بوصير (٢) منها شئ كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس ، قد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت فى زمن صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، على يدى قراقوش (٣) وكان خصيا روميا سامى الهمة فكان يتولى

(١) المقصود هنا منف كما سيوضح فى أكثر من موضع •

(٢) أبو صير الملق واسمها القديم يعنى أبيدوس الشمالية تمييزا لها عن أبيدوس الجنوبية (العرابة المدفونة) ، واسمها الرومى Busirus أى محل إقامة الإله أوزوريس ، وهى المفصودة هنا ، وهناك أيضا أبو صير وهى كورة من كور الجيزة وغيرها •
القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، لمحمد رمزى ، ق ٢ ، ج ٣ •
(٣) أمير نشأ فى خدمة صلاح الدين الأيوبي وناب عنه فى مصر • أشرف على بناء سور القاهرة وبناء قلعة الجبل ويعنى اسمه بالتركية العقاب - بضم العين وهو الطائر المعروف ، كان له أعداء كثيرون نسبوا إليه كثيرا من الأمور التى لا تصدر عن عاقل •
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ووفيات الأعيان لابن حلكان •

عمائر مصر وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطا
بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التى على المقطم ،
وهو أيضا الذى بنى القلعة وأنبط فيها البيرين الموجودتين
اليوم ، وهما أيضا من العجائب وينزل اليهما بدرج نحو
ثلثمائة درجة ، وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى بها
القناطر الموجودة اليوم بالجيزة ، وهذه القناطر من الأبنية
العجيبة أيضا ومن أعمال الجبارين وتكون نيفا وأربعين
قنطرة . وفى هذه السنة وهى سنة سبع وتسعين وخمسماية
تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء
فيروى الجيزة ، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث
قناطر وانشقت ، ومع ذلك فلم يرو ما رجا أن يروى . وقد
بقى من هذه الأهرام المهدومة قلبها وحشوتها وهى ردم
وحجارة صغار لا تصلح للقناطر ؛ فلأجل ذلك تركت .

وأما الأهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم،
فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة
الفسطاط، وبينها مسافات يسيرة زواياها متقابلة نحو الشرق
واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد وبهما أولع الشعراء
وشبهوهما بنهدين قد نهذا فى صدر الديار المصرية وهما
متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيض . وأما الثالث
فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر
المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن
الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينيك . فاذا قربت منه
وأفردته بالنظر هالك مرآه وحسر الطرف عند تأمله ، وقد
سلك فى بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ؛
ولذلك صبرت على مر الزمان بل على مرها صبر الزمان . فانك
إذا تبهرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول

الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وترجم عن سيرهم وأخبارهم ، وذلك أن وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة ، ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله فى وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها • ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع ، فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عندما تلقى السطح، ولنرجع الى ذكر الهرمين العظيمين فان المساح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمئة ذراع(٤) طولاً فى مثلها عرضاً، وارتفاع عمودها أربعمئة ذراع وذلك كله بالذراع السوداء وينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشر أذرع فى مثلها ، وأما الذى شاهده من حالهما فان راميا كان معنا رمى سهماً فى قطر أحدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة • وخبرنا أن فى القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلاً منهم ورضخنا له بشيء (٥) فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا فى الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأتوا به ، وكانت سابقة كنت أمرته أنه اذا استوى على سطحه قاسه بعمامته ، فلما نزل ذرعنا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان احدى عشرة ذراعاً بذراع اليد ، ورأيت بعض أرباب القياس قال : ارتفاع عمودها

(٤) الذراع مقياس تقريبى للأطوال يبلغ عند المصريين القدماء ٢٥٦ بوصة أو ٥٢٣٢ سنتيمتراً • أسماه على مبارك الذراع الانتيكى وهو قريب من الذراع البلدى •
(٥) دفعنا له بعض المال •

ثلثمائة ذراع ونحو سبع عشرة ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات الأضلاع طول كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا . وأرى هذا القياس خطأ ، ولو جعل العمود أربعمائة ذراع ، لصح قياسه . وان ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسى . وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلججه الناس يقضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من يلججه ويتوغله ، فان ناسا كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه فيوغلون فى أعماقه ولا بد ان ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه ، وأما السلوك فيه المطروق كثيرا فزلاقه تفضى الى أعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر ، وهذا المدخل ليس هو المتخذ له فى اصل البناء وانما هو منقوب نقبا صودف اتفاقا ، وذكر أن المامون هو الذى فتحه وجل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا الى البيت الذى فى أعلاه فلما نزلوا ؛ حدثوا بعظيم ما شاهدوا وأنه مملوء بالخفافيش وابوائها حتى يكاد يمنع السالك ويعظم فيها الخفاش حتى يكون فى قدر الحمام وفيه طبقات . وروازنه نحو أعلاه وكأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء ، وولجته مرة أخرى مع جماعة وبلغت نحو ثلثي المسافة فأغمى على من هول المطلاع فرجعت برmq .

وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشر اذرع الى عشرين ذراعا وسمكه ما بين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك ، والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الامكان أصبح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدري ما صفته ولا ما هو . وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه

وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف ، لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة . وقرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين هو قبر عازيمون ، والآخر قبر هرميس ويزعمون أنهما نبيان عظيمان ، وأن (عازيمون) أقدم وأعظم (٦) .

(٦) فى الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري ج ١ (طبعة دار الكتب العلمية) ص ٤٩ عازيمون ، لكنها كتبت مرة أخرى فى ص ١٢٧ عادمون وكتبتها الشهرستاني فى الملل والنحل عازيمون وكتبها البغدادى عازيمون ، أما هرميس فوردت فى الشهرستاني ص ٤٥ هرمس وكذلك عند ابن حزم الظاهري ص ٥٠ ، ولأهمية ارتباط هذه العقائد بالأهرام ، يهمنى أيراد ما أورده ابن حزم والشهرستاني عن عقائد الصابئة رغم أن البغدادى وحده قد انفرد من دونهما بربط هذه العقائد بأهرام مصر . يقول الشهرستاني عن « حكم هرمس العظيم المحمودة آثاره ، المرضية أقواله وأفعاله ، الذى يعد من الأنبياء الكبار ، ويقال هو أديس النبي عليه السلام » وهو الذى وضع أسامى البروج والكواكب السيارة ورتبها فى بيوتها ، وأثبت لها الشرف والوفا ، والأوج والحضيض ، والمباخر بالمثلث والتسديس والتربيع ، والمقابلة والمقارنة ، والرجعة والاستقامة . وبين تعديل الكواكب وتقويمها . وأما الأحكام المنسوبة الى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع .

وللهند والعرب طريقة أخرى فى الأحكام أخذوها من خواص الكواكب ، لا من طبائعها . ورتبوها على الثوابت ، لا على السيارات . ويقال ان عازيمون وهرمس هما شيث ، وأديس عليهما السلام ، ونقلت الفلاسفة عن عازيمون انه قال : المبادئ الأولى خمسة : البارئ تعالى ، والعقل ، والنفس ، والمكان ، والخلاء ، وبعدهما وجود المركبات . ولم ينقل هذا عن هرمس . ومن حكم هرمس :

قوله . أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعة ، المحمود بسنخه ، المرضى فى عادته ، المرجو فى عاقبته : تعظيم الله عز وجل ، وشكره على معرفته ، وبعد ذلك فللثاموس عليه حق الطاعة له ، والاعتراف بمنزلته ، وللسلطان عليه حق المناصحة والالتقياد ، ولنفسه عليه حق الاجتهاد ، والدأب فى فتح باب السعادة ، ولخلصائه عليه حق التحلى لهم بالود ، والتسارع اليهم بالبذل ، فاذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه الا كف الأذى عن العامة ، وحسن المعاشرة ، وسهولة الخلق

فى الفصل لابن حزم الظاهري .

« وقد يضاف الى جملة من قال أن مدبر العالم أكثر من واحد الصابئون ، وهم يقولون بقدوم الأصليين على ما قدمنا من نحو قول المجوس ، الا انهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة ، والبروج الاثنى عشر ، ويصورونها فى هياكلهم ويقولون بقدومها ، ويقربون الذبائح ، والدخن ، ولهم صلوات خمس فى اليوم والليلة تقترب من صلوات المسلمين ويصومون شهر رمضان ، ويستقبلون فى صلاتهم الكعبة والبیت الحرام » -

وأنه كان يحج اليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض ، وقد وسعنا القول في المنقول من الكتاب الكبير فمن أراد التوسعة فعليه ، فان هذا الكتاب مقصور على المشاهد *

وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف (٧) لما استقل بعد أبيه ، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر وهو ثلاثة الأثافي *

فأخرج اليه الحلبيّة والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكلمهم بخرابه فخيّموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا

= ويعظمون مكة والكعبة ، ويحرمون الميتة ، والدم ولحم الخنزير ، ويحرمون من القراشب ما يحرم على المسلمين ، وعلى نحو هذه الطريقة تفعل الهند بالبددة في تصويرها على أسماء الكواكب وتعظيمها ، وهو كان أصل الأوثان في العرب ، والدقاقرة في السردان ، حتى آل الأمر طول الزمان الى عبادتهم اياها * وكان الذي ينتحل الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر ، والغالب على أهل الدنيا الى أن أحدثوا فيه الحوادث ، وبدلوا شرائعه بما ذكرناه ، فبعث الله عز وجل اليهم ابراهيم خليله ﷺ بدين الاسلام الذي تحن عليه الآن ، وتصحيح ما افسدوه بالحنيئية السمعة التي اتى بها محمد ﷺ ، من عند الله تعالى * فبين لهم كما نص في القرآن بطلان ما أحدثوه ، من تعظيم الكواكب وعبادتها وعبادة الأوثان ، فلقى منهم ما نصه الله في كتابه ، وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون بالحنفاء ، ومنهم اليوم بقايا « بحران » ، وهم قليل جدا *

للسابئين شرائع يسندونها الى « هرمس » ويقولون انه « ادريس » ، والى قوم آخرين ، يذكرون أنهم أنبياء « كايرون » ويقولون انه « نوح » عليه السلام ، و « اسفلانيوس » صاحب الهيكل الموصوفسي « عازيمون » و « يوداسف » وغيرهم *
 ح ٥٠ - ٥١ ، وراجع ايضا ج ١ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٧) هو عثمان بن يوسف (ويوسف هذا هو صلاح الدين الأيوبي المشهور) بن ايوب * كنيته * أبو الفتح من ملوك الدولة الأيوبية بمصر * وكان نائباً فيها عن أبيه * ولما توفي أبوه (السلطان صلاح الدين) بدمشق ، استقل هو بملك مصر سنة ٥٨٩ هـ وحاول انتزاع دمشق من يد أخيه الأفضل مرتين فلم ينجح ، ونجح في الثالثة ٥٩٢ هـ فاقام عليها عمه العادل * يقول ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة : « استقامت الامور في أيامه وعدل في الرعية وعف عن اموالها * ولد في القاهرة ومات بها سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م *

— النجوم الزاهرة لابن تغري بردي / حوادث ٥٩٥ وغيرها *

— الاعلام للزركلي *

عليهم النفقات ، وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين ، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والامخال ، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان ، فإذا سقط سمع له جلبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال وتزلزل الأرض ويغوص فى الرمل فيتعبدون تعباً آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الأسافين ، بعد ما ينقبون لها موضعاً ويبيتونها فيه ، فيتقطع قطعاً فتسحب كل قطعة على العجل حتى تلقى فى ذيل الجبل وهى مسافة قريبة فلما طال ثوابهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصيبهم ووهنت عظامهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية ، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ومع ذلك فإن الرائي لحجارة الهدم يظن أن الهرم قد استؤصل فإذا عين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شيء وإنما جانب قد كشط بعضه . وحينما شاهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين ، فقلت له : لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؛ فأقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه .

وبازاء الأهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة ، وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لعل الفارس يدخلها برمح ويتخللها يوماً أجمع ولا ينهيها لكثرتها وسعتها وبعدها ، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام ، وأما مقاطع حجارة الصوان الأحمر فيقال أنها بالقلزم وبأسوان ، وعند هذه

الأهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلما ترى من ذلك شيئا الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول .

وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة (٨) صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول .
ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى المقياس أن تكون جثته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعا ، وفي وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطراة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما ، وسألني بعض الفضلاء : ما أعجب ما رأيت ؟ ، فقلت : تناسب وجه أبى الهول فان أعضاء وجهه بالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فان أنف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوها به ، وكذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الأعضاء فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار وهيئة ، بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة . والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب في الأعضاء مع عظمها وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله .

ومن ذلك الآثار التي بعين شمس وهى مدينة صغيرة يشاهد سورها محدقا بها مهدوما ، ويظهر من أمرها أنها قد كانت بيت عبادة وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعا وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم ، وقد كان بعض هذه الأصنام قائما

(٨) الغلوة مقياس لقياس الأطوال بشكل تقريبي . وفي أمم منظور : « ... بينه وبين الدارق غلوة » الغلوة قدر ردية بسهم .

على قواعد وبعضها قاعدا بنصبات عجبية واتقانات محكمة
وباب المدينة موجود الى اليوم * وعلى معظم تلك الحجارة
وتصاوير الانسان وغيره من الحيوان ، كتابات كثيرة بالقلم
المجهول وقلمما يرى حجر غفلا من كتابة أو نقش أو صورة ،
وفى هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون
وصفة المسلة أن قاعدة مربعة طولها عشر أذرع فى مثلها
عرضا فى نحوها سمكا * قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض
ثم أقيم عليها عمود مربع ، ينيف طوله على مائة ذراع يبتدىء
من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهى الى نقطة ، وقد
لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى ثلاث أذرع منها كالقمع وقد
تزنجر بالمطر وبطول المدة اخضر وسال من خضرته على بسيط
المسلة ، والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت احدى
المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم التقل واخذ
النحاس من رأسها ، ثم ان حولها من المسال شيئا كثيرا لا يحصى
عددها مقاديرها على نصف تلك العظمى أو ثلثها ، وقلمما تجد
فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل فصوصا بعضها
على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها *

ورأيت بالاسكندرية مسلتين على سيف البحر فى وسط
العمارة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمنتين *

وأما البرابى بالصعيد ، فالحكاية من عظمها واتقان
صنعتها واحكام سورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش
والتصاوير والخطوط ، مع احكام البناء وجفاء الآلات
والأحجار مما يفوت الحصر وهى من الشهرة بحيث تغنى عن
الاطالة فى الصفة *

ورأيت بالاسكندرية عمود السوارى وهو عمود أحمر
منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جدا شهاق

الطول ، لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعا وقطره خمس أذرع ، وتحتة قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام يفتقر الى قوة في العلم برفع الأثقال وتمهر في الهندسة العملية ، وخبرني بعض الثقات أنه قاس دوره فكان خمسا وسبعين شبرا بالشبر التام *

ثم اني رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربعائة عمود مكسوة أنصافا وأثلاثا ، حجرها من جنس حجر عمود السواري على الثلث منه أو الربع ، وزعم أهل الاسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السواري ، وان بعض ولاية الاسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف ابن أيوب ، فرأى هدم هذه السواري وتكسيها وألقاها بشاطئ البحر زعم أن ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة ، أو أن يمنع مراكب العدو أن تستند اليه ، وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة *

ورأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف ، وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه (٩) *

(٩) احترقت هذه المكتبة اثناء ثورة الاسكندرانيين على يوليوس قيصر ، وقد نقلت البقية الباقية من كتبها الى مكتبة السياريوم الذي دمر باعتباره معبدا وثنيا في العصر المسيحي . راجع فتح العرب لمصر لالفريد بتلر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد *

وأما المنارة فحالتها مشهور يغنى عن وصفها وذكر ذو العناية ، أن طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا •

وقرأت بخط بعض المحصلين أنه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنتين وستين ذراعا وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعا ونصف ذراع فصارت جملة ذلك خمسا وثمانين ذراعا وثلثي ذراع ، وطول القاعدة السفلى اثنتا عشرة ذراعا ، وطول القاعدة العليا سبع أذرع ونصف ذراع ، وقاس أيضا المنارة فوجدها مائتى ذراع وثلثا وثلثين ذراعا وهى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى مربعة وهى مائة ذراع واحد وعشرون ذراعا ، والطبقة الثانية مربعة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع ، والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلثون ذراعا ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع •

ومن ذلك الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بالجييزة وهى منف التى كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر ، واياها عنى بقوله تعالى عن موسى عليه السلام : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » ، ويقول تعالى : « فخرج منها خائفا يترقب » ، لأن مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجييزة قريبة من المدينة تسمى دموه (١٠) وبها اليوم دير لليهود ، ومقدار خرابها اليوم مسيرة نصف يوم أو نحوه وقد كانت عامرة فى زمن ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم الى زمن.

(١٠) هى ما يعرف الآن باسم منيل شيخة • على الشاطئ الغربى للنيل مقابل طرا • انظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ١٩ - ٢٠ •

بختنصر فانه أخرب ديار مصر وبقيت على خرابه أربعين سنة
وسبب خرابه اياها أن ملكها عصم منه اليهود ، حين التجأوا
الى مصر ، ولم يمكن منهم بختنصر فقصده بختنصر وأباد
دياره * ثم جاء الاسكندر بعد ذلك واستولى عليهم وعمر بها
الاسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك الى أن جاء
الاسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك
بالفسطاط * ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها
مقر الملك الى اليوم * وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا في
الكتاب الكبير * ولنرجع الى وصف منف المسماة مصر القديمة :

فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل
عليها واستئصال الأمم اياها ، من تعفية آثارها ومحو رسومها
ونقل حجارتها وآلاتها وافساد أبنيتها وتشويه صورها ،
مضافا الى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها
من العجائب ما يفوت فهم الفطن المتأمل ، ويحسر دون وصفه
البليغ اللسن وكلما زدته تأملا ، زادك عجبا وكلما زدته نظرا
زادك طربا ومهما استنبطت منه معنى ، أنباك بما هو أغرب ،
ومهما استثرت منه علما ذلك على أن وراءه ما هو اعظم *

فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر ، وهو حجر
واحد تسع أذرع ارتفاعا في ثمان طولاً في سبع عرضاً ، قد
حفر في وسطه بيت ، قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه
ذراعين والباقي فضاء البيت ، وجميعه ظاهراً وباطناً منقوش
ومصور ومكتوب بالقلم القديم ، وعلى ظاهره صورة الشمس
مما يلي مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور
الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيئات : فمن بين
قائم وماش وماد رجلية وضامهما ومشمر للخدمة وجامل
آلات ومشير بها ، ينبى ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة

أمور جليلة وأعمال شريفة وهيئات فاضلة وإشارات إلى أسرار غامضة وانها لم تتخذ عبثا ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن ، وقد كان هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى طعما فى المطالب ؛ فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله بعضه على بعض فتصدع صدوعا طفيفة يسيرة . وهذا البيت قد كان فى هيكل عظيم مبنى بحجارة عاتية جافية على آتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة . وحجارة الهرم متواصلة فى جميع أقطار هذا الخراب ، وقد بقى فى بعضها حيطان ماثلة بتلك الحجارة الجافية وفى بعضها أساس وفى بعضها أطلال ، ورأيت عقد باب شاهقا ركناه حجران فقط وأزحجه حجر واحد قد سقط بين يديه وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر فى ارتفاع اصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرته ، فعلمت أن ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات ، بينها بابان يجعل بين الحجرين ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعها الأندال المغرورون فقلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيرا من الحجارة حتى يصلوا اليها ولعمرك الله قد بذلوا الجهد فى استخلاصها وأبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل فى الخساسة . وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير ، وأما اتقان أشكالها واحكام هيئاتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة . .

فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعا وكان مداه من جهة اليمين الى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف الى الامام على تلك النسبة ، وهو حجر واحد من

الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر كأنه لم يزد
تقادم الأيام الا جدة .

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظم النظام
الطبيعى والتناسب الحقيقى ، وأنت تعلم أن كل واحد من
الأعضاء الآلية والمتشابهة له فى نفسه مقدار ما وله الى سائر
الأعضاء نسبة ما بذلك المقدار . وبذلك النسبة تحصل
حسن الهيئة وملاحة الصورة ، فان اختل شئ من ذلك حدث
من القبح بمقدار الخلل . وقد أحكم فى هذه الأصنام هذا
النظام احكاما أى احكام ، فمن ذلك مقادير الأعضاء فى
نفسها ثم نسب بعضها الى بعض ، فانك ترى الصنم قد يبتدىء
بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ
الصدر فى ارتفاع الترائب الى الشدوتين فيرتفعان عما دونهما
ويبرزان من سائر الصدر بنسبة عجبية ثم يعلوان الى حد
الحلمة ، ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم
تنحدر الى الموضع المطمئن عند القص وفرجة الزور وزور
القلب والى تجميع الأضلاع والتوائها ، كما هو موجود فى
الحيوان الحقيقى . ثم تنحدر الى مقاط الأضلاع ومراق
البطن والتواء العصب وعضل البطن يميناً وشمالاً وتوترها
وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلى الاقارب ثم تحقيق
السرة وتوتر العضل حولها ، ثم الانحدار الى الثنية والحالبين
وعروق الحلب والخروج منه الى عظمى الوركين ، وكذلك تجد
انفصال الكتف واتصالها بالعضد ثم بالساعد وانفتال جبل
الذراع والكوع والكرسوع وابرة المرفق ونهرى مفصل
الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر
العصب وغير ذلك مما يطول شرحه ، وقد صور كفى بعضها
قابضاً به على عمود قطره شبر كأنه كتاب ، وصورت الغضون

والأساريير التى تحدث فى جلدة الكف مما يلى الخنصر عند ما يقبض الانسان كفه ، وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله وأتم ما فى المواد الحجرية أن تقبله ولم يبق الا صورة اللحم والدم وكذلك صورة الأذن واختارها وتمازيجها على غاية التمثيل والتخييل .

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جدا وقد حفظ فيهما النظام الطبيعى والتناسب الحيوانى ، مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقى جدا جدا وقد تكسرا وردما بالتراب .

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف متطاوول الشكل ومقداره نصف الآجر الكسرى بالعراق . كما أن طوب مصر اليوم نصف آجر العراق اليوم أيضا .

وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجشهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ، ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض ، فان النصف الأسفل من الانسان أعظم من النصف الأعلى منه أعنى التنور بمقدار مفلوم ، بخلاف سائر الحيوان . والانسان المعتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده الى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر وربع وهكذا جميع عظام الصغار والكبار والقصب والسناش

والسلاميات حافظة للنظام في مقاديرها ونسب بعضها الى بعض ، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة كانهضاف اليافوخ عن ذروة الرأس ونتوئه عما دونه ، وامتداد الجبهة والجبينين وتطامن الصدغين وتتوء عظمى الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الأنف ولين المارن وانفراج المنخرين وامتداد الوتر ودقة الشفتين واستدارة الحبك وانخراط الفكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة ، وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل . وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا في المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له ، يدل على أن القوم كان لهم حداقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها ، وان جميع ما أدركوه وان جل فهو حقير تافه ، بالقياس الى الأمر الحقيقي المطبوع ، وانما يستعظم ما عرفه الانسان منه بالقياس الى ضعف قوته وبالقياس الى باقى نوعه ممن يعجز عما قدر عليه ، كما يتعجب من النملة اذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل اذا حمل قناطير وهذا نص كلامه باصلاحى قال : من العجب أن نستحب علم احكام التصاوير وعمل الأصنام وافراغها ونتبين حكمته ، ولا نستحب معرفة الأشياء المقومة بالطبيعة ، ولا سيما اذا قوينا على معرفة عللها ، ولذلك لا ينبغي لنا أن نكره النظر فى طباع الحيوان الحقيقى الذى ليس بكريم ، ولا يثقل ذلك علينا كما يثقل على الصبيان . ففى جميع الأشياء الطباعية شىء عجيب ولذلك ينبغي لنا أن نطلب معرفة طباع كل واحد من الحيوان ونعلم أن فى جميعه شيئاً طباعياً كريماً ، لأنه لم يطبع شىء منها على وجه الباطل ولا كما جاء واتفق ولا بالبحت ، بل كل ما يكون من قبيل الطباع قائماً يكون لشىء أعنى لحال التمام ولذلك صار له مكان ومرتبة وفضيلة صالحة . فتبارك الله أحسن الخالقين !!

وأما باطن الحيوان وتجويقاته وما فيها من العجائب التى تشتمل على وصفها كتب التشريح لجالينوس وغيره وكتاب منافع الأعضاء له ، فان أيسر اليسير منه يبهت دونه المصور حسيرا ولا يجد له على ذلك ظهيرا ويعلم مصداق قوله تعالى : « وخلق الانسان ضعيفا » •

وأقول ان التعجب من الأمور الصناعية أيضا هو التعجب من الأمور الطباعية ؛ لأن الأمور الصناعية هى بوجه ما طباعية ، وذلك أنها حادثة عن قوى طباعية • وكما أن المهندس اذا حرك ثقلا عظيما استحق أن يتعجب منه ؛ فكذلك اذا صنع صورة من خشب مثلا تحرك تلك الصورة ثقلا ما كان ذلك المهندس أحرى أن يتعجب منه • والله خلقكم وما تعملون فتبارك من هذا ملكوته ، ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة • وفى أنفسكم أفلا تبصرون ونور جلاله ساطع فلا يحجب به حجاب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • ومن أشباح الموجودات بقدرته قائمة وبارادته متحركة وساكنة وبنفاد أمره فيها فرحة وباقترابها من حضرة قدسه مبتهجة ، ولتكثرها تشهد بوحدانيته وبتغيرها تقرر بقدرته وان من شئ الا يسبح بحمده •

ولنرجع الى حديثنا الأول فنقول ، هذه الأصنام مع كثرتها قد تركتها الأيام الا الأقل منها جذاذا وغادرتها رمادا • ولقد شاهدت كبيرا منها وقد نحت من صلصته رجا ولم يظهر فى صورته كبير تشويه ولا تغير بين ، ورأيت صنما وبين رجليه صنم متصل به صغير كأنه مولود بالقياس اليه ، وهو مع ذلك كأعظم رجل يكون وعليه من الملاحظة والجمال ما يشوق الناظر اليه لا يمل من ملاحظته • واتخاذ الأصنام قد كان فى ذلك الزمان شائعا فى الأرض عاما فى الأمم ولهذا

قال تعالى في حق ابراهيم عليه السلام : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » أى كان وحده في زمنه موحدًا فهو أمة بنفسه لاعتزاله اياهم وانفراده برأى يخالف آراءهم ، ولما رأى بنو اسرائيل تعظيم القبط هذه الأصنام وتبجيلهم اياها وعكوفهم عليها وألفوا ذلك وأنسوا به لطول مقامهم بينهم ، ثم رأوا قوما من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم تجهلون . ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباطا وصابئة (١١) ، نزعوا الى الأصل ومالوا الى سنة آبائهم القديمة في اتخاذ التصاوير في بيعهم وهياكل عبادتهم وبالغوا في ذلك وتفننوا فيه ، وربما تراموا في الجهالة حتى يصوروا الههم والملائكة حوله بزعمهم وجميع ذلك لبقايا فيهم من سنن أوائهم ، وان كان الأوائل يكبرون الاله أن يدخل تحت ادراك عقلى وحسى فضلا عن تصوير ، وانما سهل على النصارى ذلك وأجرأهم عليه اعتقادهم الالهية للبشر ، وقد حققنا القول في ذلك في مقالاتنا عليهم .

وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها وان كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب . ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر . ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة على المثل . ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافق علومهم وصفاء

(١١) من المفهوم ان الصابئة غير النصارى ، لكن ابن حزم الظاهري في كتابه الفصل بين الملل والأهواء والنحل عقد مقارنة بينهما وأوجد بينهما بعض الشبه ، ج ١ ، ص ٥٠ وما بعدها .

فكرهم وغير ذلك وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه ، وأما فى زمننا هذا فترك الناس سدى وسرحوا هملا وفوضت اليهم شئونهم فتحركوا بحسب أهوائهم وجرؤا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل امرئ منهم على شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ما تسول له نفسه ويدعو اليه هواه . فلما رأوا آثارها هائلة راعهم منظرها وظنوا ظن السوء بمخبرها ، وكان جل انصراف ظنونهم الى معشوقهم وأجل الأشياء فى قلوبهم وهو الدينار والدرهم كما قيل .

وكل شيء رآه ظنه قدحا وان رأى ظل شخص ظنه الساقى فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شيء مفطور فى جبل أنه يفضى الى كنز ، وكل صنم عظيم أنه حاصل المال تحت قدميه وهو مهلك عليه ؛ فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ويبالغون فى تهديمه ويفسدون صور الأصنام افساد من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف ، وينقبون الأحجار نقب من لا يترامى أنها صناديق مقللة على ذخائر ويسربون فى قطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وانتهز فرصة ، لم يشمر غيره بها .

وهذه الفطور منها ما يدخل حبوا ومنها ما يدخل زحفا ، ومنها ما يدخل سحباً على الوجوه ومنها مضايق لا ينسحب فيها الا الضرب الضئيل وأكثر ذلك انما هو فطور طبيعة الجبال .

ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه فى ذلك ومن كان فقيراً قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بأيمان يحلفها له وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه علامات يدعى

أنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله . وما أقبح بعد ذلك ماله ! .

ومما يقوى أطماعهم ويديم اصرارهم أنهم يجدون تواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء محكمة البناء ، وفيها من موتى القدماء الجرم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والاصبع في قطع دقاق ، ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم . ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان فما وجد فيه تماسكا ، اتخذه ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين . ويوجد بعض موتاهم في توابيت من خشب الجميز ثخين ، ويوجد بعضهم في نواويس من حجارة اما رخام واما صوان وبعضهم في أزيار مملوءة عسلا ، وخبرني الثقة أنهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الأهرام صادفوا دنا مختوما ففضوه فاذا فيه عسل ، فأكلوا منه فعلق في اصبع أحدهم شعر فجذبه فظهر لهم صبي صغير متمسك الأعضاء رطب البدن عليه شيء من الحلى والجوهر . وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر ، وقد يوجد منه أيضا على فرج المرأة وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشاء ، وربما وجد عنده شيء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده آلتة التي كان يزاوّل بها العمل في حياته . وخبرني الثقة أنه وجد عند ميت منهم آلة مزين ، مسنا وموسى ، وعند آخر آلة الحجام ، وعند آخر آلة الحائك ، ويظهر من حالهم أنه قد كان من سنتهم أن يدفنوا مع الرجل آلتة وماله .

وسمعت أن طوائف من الحبشة هذه سنتهم يتطيرون بمتاع الميت أن يمسوه أو يتصرفوا فيه وكان لنا قريب دخل الحبشة واكتسب مالا منه مائتا أوقية من الذهب ، وانه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فأخذه ممثنا عليهم .

وقد كان من سنتهم ، والله أعلم ، أن يجعل مع الميت شيء من الذهب ، فخيرنى بعض قضاة بوصير وهى مجاورة لمداقنهم أنهم نبشوا ثلاثة قبور فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع فيه ، وفى كل منها سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاث فكان وزنها تسعة مثاقيل ، والحكايات فى ذلك أوسع من أن يحصرها هذا الكتاب .

وأما ما يوجد فى أجوافهم وأدمغتهم من الشيء الذى يسمونه موميا فكثير جدا ، يجلبه أهل الريف الى المدينة ويبيع بالشيء النزر ولقد اشترت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصرى .

وآرائى بائعه جولقا مملوءا من ذلك فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا الموميا ، ورأيته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كأنها جزء منه ، ورأيت أيضا على قحف الرأس أثر ثوب الكفن وأثر النساجة قد انتقش فيه كما يرسم على الشمع اذا ختمت به على ثوب وهذا الموميا هو أسود كالكار ، ورأيته اذا اشتد عليه حر الصيف يجرى ويلصق بما يدنو منه ، واذا طرح على الجمر غلى ودخن منه رائحة القار أو الزفت ، والعالب أنه زفت ومر .

وأما الموميا بالحقيقى فشيء ينحدر من رءوس الجبال مع المياه ، ثم يجمد كالكار ويفوح منه رائحة زفت مخلوط

بمر - وقال جالينوس : الموميا يخرج من العيون كالقار والنفط - وقال غيره : هو صنف من القار ويسمى حيض الجبال ، وهذا الذى يوجد فى تجاوىف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وان يستعمل بدله اذا تعذر *

ومن أعجب ما يوجد فى مدافنهم أصناف الحيوان من الطير والوحش والحشرات ، وقد كفن الواحد منها فى كذا وكذا ثوبا وهو محتاط عليه محتفظ به ، وخبرنى الثقة أنهم وجدوا بيتا تحت الأرض محكما ففتحوه فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب وقد تقمطت فأزالوها مع كثرتها فوجدوا تحتها عجلا صحيحا قد أحكم تقميطة ، وحدثنى آخر أنهم وجدوا صقرا فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عيوا فوجدوه ، لم تسقط منه ريشة ، وحكى لى مثل ذلك عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغير ذلك مما يطول شرحه ويهجن ذكره *

وحكى لى الأمير الصادق أنه كان بقوص ، فجاء اليه من يبحث عن المطالب فذكروا له أنهم انخسفت بهم هوة ، موهمة أن فيها دفيئا ، فخرج معهم بجماعة متسلحين وحفروا فوجدوا زيرا كبيرا موثق الرأس بالجص ، ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فيه كالأصابع مكفنا بخرق فحلوه فوجدوا تحتها صيرا وهو سمك صغار وقد صار كالهباء اذا نفخ طار ، فنقلوا الزير الى مدينة قوص بين يدى الوالى واجتمع عليه نحو مائة رجل فحلوا الجميع حتى أتوا على آخره وهو كله صير مكفن ليس فيه سوى ذلك *

ورأيت أنا بعد ذلك فى مدافنهم ببوصير من العجائب مالا يفى به هذا الكتاب ، فمن ذلك انى وجدت فى هذه المدافن مغائر تحت الأرض مبنية باتقان وفيها رسم مكفنة ،

وقى كل مغارة عدد لا يحصى ومن المغائر ما هو مملوء برمم الكلاب ، ومنها ما هو مملوء برمم البقر ، ومنها ما فيه رمم السنانير والجميع مكفن بخرق القنب ، ورأيت شيئا من عظام بنى آدم وقد تمشق حتى صار كالليف الأبيض لقدمه ، ومع ذلك فأكثر الرمم التى رأيتها صلبة متماسكة جدا يظهر عليها من الطرارة أكثر من رمم الهالكين سنة سبع وتسعين وخمسمائة الآتى ذكرها آخر كتابنا هذا ، و سيما ما كان من الرمم القديمة قد انصبغ بالزفت والقطران فانك تجدها فى لون الحديد وصلابته ورزاقته ، ورأيت من جماجم البقر ما شاء الله وكذلك جماجم الغنم وفرقت بين رؤوس المعز والضأن وبين رؤوس البقر والثيران ، ووجدت لحم البقر قد التصق بالأكفان حتى صار قطعة احدة حمراء تقرب الى السواد ، ويخرج العظم من تحتها أبيض وبعض العظام أحمر وبعضها أسود وكذلك فى عظام الآدمى ، ولا شك فى أن الأكفان كانت تبل بالصبر والقطران وتشرب به ثم يكفن بها فلذلك يصبغ اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صبغته فاحمر واسود . ووجدت فى عدة مواضع تلالا من رمم الكلاب لعله يكون فى جملتها مائة ألف رأس كلب أو يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب ، فان جماعة يجعلون مكاسبهم من هذه القبور وأخذ ما سنع لهم من الخشب والخرق وغيره . واستقرت جميع المواضع المحكمة فلم أجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقى ذلك فى نفسى . فسألت مشايخ بوصير فبادروا الى اخبارى بأنهم قد تقدمت فكرتهم فى ذلك واستقراؤهم اياه فلم يجدوه . وأكثر توابيتهم من خشب الجميز وفيه القوى الصلب ومنه ما صار فى درجة الرماد ، وخبرنى قضاة بوصير بعجائب منها أنهم وجدوا ناوسا من حجر ففضوه فلقوا فيه ناوسا ، ففضوه فوجدوا فيه تابوتا ،

ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهى سام ابصر مكفنة محتاطا عليها معنيا بها *

ووجدنا عند بوصير أهراما كثيرة منها هرم قد انهدم وبقي قلبه فقسناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمى الجيزة *

وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بعين شمس وبالبرابى وبغيرها *

واعلم أن الأهرام لم أجد لها ذكرا فى التوراة ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها ، وإنما قال فى اثناء قوله فى السياسة : كما كان من سنة المصريين البناء ، وللاسكندر الأفروديسى تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض بشيء من أخبار القبط ، وأما جالينوس فرأيته ذكر الأهرام فى موضع واحد وجعله من هرم الشينوخة ، وقال فى كتاب شرح الأهوية والبلدان لبقرات : فمن أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر ، فان أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة * هذا معنى قوله ، وقال فى كتاب عمل التشريح : فمن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيئتها ؛ فينبغى له أن يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء *

واعلم أن القبط بمصر نظير النبط بالعراق * ومنف نظيرة بابل والروم والأقاصر بمصر نظير الفرس والآكاسرة بالعراق والاسكندرية نظير المدائن ، والفسطاط نظير بغداد * والجميع اليوم بعد الاسلام وتشمله دعوة بنى العباس *

الفصل الخامس

فيما شوهدها بها من غرائب الأبنية والسفن

وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية .
حتى انهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم
أقبح (١) وغالب سكناهم في الأعالى ويجعلون منافذ منازلهم
تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا الا وتجد
فيه باذاهيح (٢) وبأذاهيحاتهم (٣) كبار واسطة للريح عليها
تسلط ويحكمونها غاية الاحكام ، حتى انه يقوم على عمارة
الواحد منها مائة دينار الى خمسمائة ، وان كانت باذاهيحات
المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم
وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت
والطوب الأحمر وهو الآجر ، شكل طوبهم على نصف طوب
العراق .

ويحكمون قنوات المراحيض ، حتى انه تخرب الدار
والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف (٤) الى الممين فتغير عليها
برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح * واذا أرادوا

(١) هذا خطأ في طبعة مجلة المصري ، والصحيح ما ورد في طبعة مطبعة وادي

النيل : أقيح ، أي فيجاء ، وليس أقيح .

(٢) في طبعة مطبعة وادي النيل باداهنج .

(٣) في طبعة مطبعة وادي النيل باداهنجاتهم .

(٤) جمع كنيف (دورة المياه) .

بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد الى العرصة وهى تل تراب أو نحوه فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك .

وأما المستاة فيسمونها الرزينة ولهم فى بنائها اتقان حسن ، وصفته أن يحفر الأساس حتى تظهر النداة وثرير الماء فحينئذ يوضع ملبن من خشب الجميز أو نحوه على تلك الارض الندية بعد ما تمهد ، ويكون عرضه نحو ثلثى ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذى يجعل فى قعر الآبار ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة النسر . فيأتى الفواصون وينزلون هذه البير ، يحفرونها وكلما نبع الماء نزحوه من الطين والرمل ، ويحفرون أيضا تحت ذلك الملبن فكلما تخلخل ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما نزل غاصوا عليه وحفروا تحته والبناء فى أثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه ، ولا يزال البناء يرفع والفاعل تحته يحفر وهو بثقله يغوص حتى يستقر على أرض جلدة ويصل الى الجد الذى يعرفونه ، فحينئذ ينتقلون الى عمل آخر مثله على سمته وعلى بعد أربع أذرع منه أو نحوها ، ولا يزالون يفعلون ذلك فى جميع طول الأساس المفروض ثم يبنون الأساس كالعادة بعد ردم هذه الآبار ؛ فترجع أوتادا راسية للبناء وعمدا تدعمه وتوثقه .

وأما حماياتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا . أما أولا ، فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين الى أربع روايا

وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا اختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نحو ربعة فوق الأرض وسائرة في عمقتها ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه * وداخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفي المسلح أيضا مقاصير لأرباب التخصص ؛ حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ؛ لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء في أن يتخذ دارا لجلوسه وتنأهى في ذلك لم تكن أحسن منه *

وفي موقده حكمة عجيبة ، وذلك أن يتخذ بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل اليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص كقدور الهراس لكنها أكبر منها ، وتتصل هذه القدور قرب أعاليها بمجار من أنابيب فيدخل الماء من مجرى البير الى فسقية عظيمة ، ثم منها الى القدر الأولى فيكون فيها باردا على حاله ثم يجرى منها الى الثانية فيسخن قليلا ، ثم الى الثالثة فيسخن أكثر من ذلك ثم الى الرابعة فيتناهى حره ، ثم يخرج من الرابعة الى مجارى الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بأيسر كلفة وأهون سعى وأقصر زمان وهذا العمل حاكوا به فعل الطبيعة في بطون الحيوان وطبخها الغذاء ، فان الغذاء يتنقل في الأمعاء وآلات

الغذاء التي هي لكل حيوان وكلما صار الغذاء الى مصير ،
حصل على صنف من الهضم ومقدار من النضج حتى يصل الى
المعاء الأخير وقد تنأى *

واعلم أن هذه القدر كل حين تحتاج الى تجديد
ما ينقصها فتوجد القدر الأولى التي هي وعاء البارد قد
نقصت أكثر من نقصان القدر التي هي وعاء الحار بمقدارين
ولذلك علة طبيعية ليس هذا موضعها *

ويفرشون أرض الأتون التي هي مقر النار بنحو خمسين
أردباً ملحاً وهكذا يفعلون بأرض الأفران ؛ لأن الملح من طبعه
حفظ الحرارة *

وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال واغرب ما رأيت
فيها مركب يسمونه العشري شكله شكل شجرة داخلية ، الا أنه
أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداماً وشكلاً ، قد سطح
بألواح من خشب ثمينة محكمة وأخرج منها أفاريز
كالرواشن (٥) نحو ذراعين ، وبنى فوق هذا السطح بيت من
خشب وعقد عليه قبة وفتح له طاقات ورواذن بأبواب الى
البحر من سائر جهاته ثم تعمل في هذا البيت خزانة مفردة
ومرحاض ، ثم يزوق بأصناف الأصباغ ويدهن بأحسن
دهان *

وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس
جالساً في وسادته وخواصه حوله والغلمان ، والمماليك قيام
بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائبهم
في قعر المركب ، والملاحون تحت السطح أيضاً وفي باقي المركب

(٥) جمع روشان والمقصود بها التراس الصغير أو البلكونة *

يقذفون به لا يعلمون شيئاً من أحوال الركاب ولا الركاب
تشتغل خواطيرهم بهم كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول
بما هو بصدده ، وإذا أراد الرئيس الاختلاص بنفسه عن
أصحابه دخل المخدع ، وإذا أراد قضاء حاجته دخل المرحاض ،
والملاحون بمصر يقذفون الى ورائهم فهم في قذفهم يشبهون
الجبالين في مشيهم القهقري ويشبهون في تحريكهم السفن
من يجذب ثقلاً بين يديه ويمشى به الى خلفه ، وأما ملاحو
المراق فهم بمنزلة من يدفع الثقل أمامه ويدسر به فسفنهم
تتوجه حيث الملاح متجه ، وأما سفن مصر فهي تتحرك الى ضد
الجهة التي اليها الملاح متوجه - وأما أى الحالتين أسهل
والبرهان عليها فموضعه العلم الطبيعي وعلم تحريك
الأثقال .

الفصل السادس

فى غرائب أطعمتها

فمن ذلك النيدة (٦) وهى بمنزلة الخبيص حمراء الى السواد وهى حلوة لا فى الغاية وتتخذ من القمح بأن ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشاء وقوته فى الماء ، ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلظ ، ثم يذر عليه الدقيق ويعقد ويرفع فيباع بسعر الخبز وهذه تسمى نيدة البوش ، وقد يطبخ ذلك الماء وحده حتى ينمقد من غير دقيق وتسمى النيدة المعقودة وهى أغلى من الأولى وأعلى *

ويختصون أيضا باستخراج دهن بزر الفجل والسلجم والخس ، ويستصحبون به ويعملون منه الصابون، وصابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر وبه شبهت الصابونية واليه نسبت *

(٦) ورد فى تذكرة داود (القرن ١١ هـ) عن النيدة ما بلى :
« (نيدة) هى حلوة تعمل بمصر من الحنطة دون أن يخالطها شيء من الحلاوات وأجودها النقى المصادق الحلاوة المحكم الطبخ ؛ وهى حارة فى الأولى معتدلة أجود من النشا تولد خلطا جيدا وتسمن المهزولين وتعزل البلغم وتنفع من البخار السوداء والوسواس والماليخوليا والسعال اليابس وأوجاع الصدر وهى بطيئة الهضم ثقيلة تولد السدد والحميات والمطبوخ منها باللوز رديء جدا وينبغى أن تؤكل على الجوع ولا تتبع بهيء حتى تنهضم وإن لا يتناولها صاحب دعة ؛ لأنها من أغذية أصحاب الكد ويصلحها السكنجيين وماء الهندباء » *

وأما أطبختهم فالحوامض منها والسواذج هى المعهودة أو قريبة من المعهودة ، وأما المحليات فغريبة وذلك أنهم يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات ، وسبيل ذلك أن تسلق الدجاج ثم ترمى فى الجلاب ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو بزر رجلة أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع ، وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخشية والوردية وست المنوية التى تعقد ببزر الرجلة لسوادها ويتفننون فى ذلك تفننا يحتاج الى شرح أكثر من هذا .

أما الحلويات المتخذة من السكر ، فأصناف كثيرة يؤدى استقصاؤها الى الخروج عن الغرض ويحوج الى وضع كتاب مفرد ، وقد يتخذ منها ما يصلح لمداواة الأمراض ولآرباب الحمية من المرضى والناقهين اذا تاقت أنفسهم الى الحلوى ، فمن ذلك خبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلية المتخذة بالزنجبيل ، وكأقراص العود وأقراص الليمون والأقراص المسكة وغير ذلك ، وكثيرا ما يستعملون الفستق فى أطبختهم وحلوائهم عوض اللوز وهو مما يفتح سدد الكبد ، ويتخذون منه هريسة تسمى هريسة الفستق وهى لذيذة جدا مسمنة وموادها لحم دجاج مسلوق منسر جزء وجلاب جزءان ومثل ثمن الجميع أو تسعه فستق مقشور مهروس ، وكيفية عمله أن يمسح اللحم المنسر بالسيرج ويجعل بالدست بحيث يشم النار ويسكب عليه الجلاب ويضرب حتى ينعقد ثم يلقي على الفستق ويضرب حتى يختلط ثم يرفع .

ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ويمجن

مع خمسة أرتال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكانان (٧) ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا في صينية نحاس قد اتخذت لذلك سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة، ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفسق المهروس والأفاويه العطرة الحارة بالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى (٨) والكزبرة والكمون والهال (٩) الجوزة ونحو ذلك ، ويرش

(٧) في تذكرة داود أن الخشكانان يكتب أيضا الخشكاننج هو دقيق الحنطة اذا عجن بشيرج وبسط وملئ بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد وجمع وخبز ، وهال الشام يسمونه المكفن ...

(٨) ورد في تذكرة داود الانطاكي : (مصطكى) معرب عن مصطيفا اليوناني يسمى الكنة والعلك الرومي والمراد بهذا الاسم عند الاطلاق الصمغ ، وهو نوعان : أبيض ناعم طيب الرائحة فيه لدونة حلو اسود الى المرارة يسحق ويسمى المعلق قيل انه يؤخذ بالشرط والصحيح أن الأول هو المدفوع بحركة الطبيعة الى ظاهر العود كغيره من الصمغ ، والثاني يؤخذ من العود الغض والورق بالطبخ ولا يوجد الا بصاقس من أعمال رودس مما يلي الترك في الخامس وقيل يوجد بأشبيلية من الاندلس ولكنه غير جيد وشجرها في السباطة ولطف العود والورق كشجر الأراك ولها ثمر يقضم الى المرارة ويؤخذ هذا الصمغ في شمس الجوزاء وتبقى قوته نحو عشرين سنة وهي حارة في الثانية يابس في الثالثة تذهب الصداع والنزلات وتسهل البلغم مع الغاريقون وما تشبه بالصفراء مع الصبر والسوداء والوسواس وحديث النفس ومبادئ الماخيوليا مع الاهليجات وتوقا التوازن وتنقى القصبة وتقطع النفث والنزف مع الكهريا مجرب وتحد الفهم مع الكندر وتذهب قراقر المعدة وسوء الهضم والرياح الغليظة وضعف الكبد والطحال وألم الكسر والخلع والوشى والقروح مطلقا وان طبخت في الشيرج وقطرت في الأذن فتحت السدد وأزلت الصمم مجرب وتلصق وان نجر بها قطن بل ماء ورد وجعل على العين سكنت الرمد والوجع مجرب وتعديل الأسنان واللثة كيف استعملت وان طبخت مع الزيت أزالته النافض والكزان والعرشة والضريران والاعيان مجرب .

(٩) هو ما يعرف في مصر باسم حبهان ، وفي الخليج والسعودية باسم الهيل ، وقد أورده داود في تذكرته تحت اسم قاقلة . يقول الانطاكي : (قاقلة) هو الهيلبوا والهال والشوشمير وهو حب يخرج في أصل نحو دراعين عريض الأوراق خشن حاد الرائحة يكون فيه هذا الحب كما يرى بهذه الصورة مفرقا وهو ذكر مثلث الشكل بين طول واستدارة ينفرك عن الشكل المذكور وقد رصفت فيه الحبات كل واحدة كالعندسة لكنها ليست مفرطة وأنثى غلافها نحو اصبع مثلث أيضا ينفرك عن حب كالحمص ومنايت الكل أرض الدكن وجبال ملعة ويدرك بشمس الأسد وتبقى قوته عشر سنين وهو حار يابس والصغير في الثانية والكبير في الثالثة يطيب =

عليه ماء ورد قد أذيب فيه مسك ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجا وعشرون فرخا بعضه مشوى محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم (١٠) أو بماء الليمون أو بنحو ذلك ، ثم يشور بالسنبوسك (١١) والقماقم المحشوة باللحم بعضها وبالسكر والحلوى بعضها ، وان شئت أن تزيده خروفا آخر تتخذه شرائح فلا بأس وكذا جنبسا مقلوا ، فاذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد

• الفم ويزيل البخر والروائح الكريهة ويرد المعدة والكبد والرياح الغليظة والحمى أكلا والمرع سموطا والقيء بماء الزمان والسدد بالسكنجيين ويفرح تفريحا عظيما خصوصا الكبار والصغير فى الهضم أجود وهو يضر السفلى ويصلحه كثيرا وشربته الى درهمين. وبدله نصفه كبابة ومثله حب بلسان •

(١٠) (حصرم) هو الأخضر من العنب وأجوده الخالى من الحلاوة ويدرك بحزيران. وهو بارد يابس فى الثانية أو ييسه فى الأولى يقمع الاخلط الصفراوية والدوخة والعطش ويزيل الاسترخاء والترهل مطلقا ومبادئ الحصف والحكة دلكا خصوصا يابسه ويطبب العرق وماؤه فى ذلك أشد وإذا طبخ به ورق الزيتون حتى يصير درهما قلع الأسنان اذا وضع عليها بلا آلة وإذا عصر وجفف فى الشمس ورفع كانت هذه نافعة من الخناق وأورام الحلق واسترخاء المقعدة وسقوط اللهاة والرعاف وقذف الدم مطلقا والجسدى. والاسهال المزمن شربا وطلاء وتصلح القلاع وتعرف برب الحصرم والأولى تجفيفها فى نحو الزجاج لا فى نحاس أحمر لأنه يضر الحوامل ومتى مزج هذا الماء أو العصارة الجافة بشيء من العسل ووضع فى الشمس كان شربا جيدا كما نكر فى العصارة وإذا حلت بماء الكراث جففت البواسير طلاء أو حملت فرزجة نقت الرجم وأصلحته بالفسا وهو يضر الصدر ويحدث السعال ويصلحه الجلنجبين وشراب الخشخاش وأصلحه أن لا يستعمل قبل سنة وشربة العصارة الى مثقال والشراب الى رطل وبدله ماء التفاح الحامض •

(١١) (سنبوسك) باليونانية بزمارد وهو عجين يحكم عجنه بالادهان كالشيرح والسمن ثم يرق ويحشى بلحم قد نعم طعمه وفوه ويزر ممزوجا باليصل والشيرج يطوى عليه ويقل فى الدهن أو يخبز وأجوده ما حمض بنحو الليمون وكان لحمه صغيرا أو عمل من الدجاج وهو حار رطب فى الثانية والمخبوز يابس فى الأولى يغذى جيدا ويسمن ويربى الشحم ويقوى الأعصاب ويهيج الشهوة والمخبوز للمرطوبين أجود من المقلى والمقلى لأصحاب السواد والهزال أجود وهو ثقيل عسر اللضم يولد السدد والرياح الغليظة وإذا تجاوز بعد خبزه أكثر من يومين فى الصيف فلا يجوز تعاطيه ويصلحه

• السكتنجيين •

أذيب فيه مسك وعود ، ثم غطى بالقسم الثاني من العجين بعد أن يمد رغيفا ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكان بحيث لا يخرج منه نفس أصلا ، ثم يقرب الى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء فى النضج فحينئذ ترسل الصينية فى التنور بعراها رويدا رويدا ، ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح بالسفينة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل . وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى منضجياتهم النائبة ومتنزهاتهم النازحة ؛ فانه وحده جملة فيها تفصيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة .

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئا من ذلك ، وأكثر أغذيتهم الصبر والمصحنة (١٢) والدلينس والخبز

(١٢) (صبر) بكسر الموحدة ويقال صبارة أضلاعه كالقرنيط وأعرض وعلى أطرافه شوك صغار وتعيش أين وضعت كالعنصل وتكتفى بالهواء عن الماء وإذا عتقت قام فى وسطها قضيب نحو ذراع يحمل ثمرها كالبالج الصغير أخضر ويحمر عند استوائه وهذا الثمر منه دقيق الطرفين يسمى أنثى ومتناسب غليظ هو الذكر والصبر عصارة هذه الأضلاع وهو اما أصفر الى حمرة سريع التفتت يراق طيب الرائحة وهو السقطرى أو صلب أغبر يسمى العربى أو كمدش يسمى السمجاني بالمعجمة التحلية وهو رديء والصبر من الأدوية الشريفة قيل لما جلبه الاسكندر من اليمن الى مصر كتب اليه المعلم أن لا تقيم على هذه الشجرة خادما غير اليونانيين لأن الناس لا يدرون قدرها ، وأجود ما اعتصر فى السرطان ثم يوصع بعد التشميس فى الجلود وتبقى قوته أربع سنين وعلامة الحديث منه خلوه عن السوداء وتخلقه بلون الكبد اذا نفخ فيه وهو حار يابس فى الثالثة أو الثانية يخرج الأخلاط الثلاثة وينقى الدماغ مع المصطكى والمفاصل بالعاريقون والربو وأوجاع الصدر وأمراض المعدة كلها والطحال والكلى ويقع فى الحبوب النفيسة ويقوى الأعمال الأدوية ويجذب من الاقاصى ويفتح السدد الى طريق الكبد ويحفظ الأبدان من البلى ويذهب رياح الاحشاء والحكة والجرب والقروح والقواوى والجئون والجذام والوسواس والبواسير والشقاق شربا والسقطة والضربة والأورام والآثار والنزلات والصداق والنملة والحمرة وانسبار الاواكل ظلام يعسل أو غيره ومع المرسين والسذاب يطول الشعر ويسوده ويمنع تساقطه ويقتل القمل وينبت الشعر بعد القراع مجرب ، وإذا حل بالخل وغسل به اذهب السعفة والحزان وداء الثعلب والاكتهال به يحد البصر ويذهب السلاق =

والنيدة ونحو ذلك وشرابهم البوظة وهو نبيذ يتخذ من القمح ، ومنهم أصناف يأكلون الفار المتولد فى الصحارى والفيضان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط ، وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتان من الحمير والدواب ، وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر ، وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرز والسماق والمدققات وغير ذلك .

آخر المقالة الأولى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين .

= والجرب والحرقه وغلظ الأجفان وإن طبخ بماء الكواث وسلخ الحية أبرأ أمراض المقعدة جميعا وأسقط البواسير كيف استعمل وهو يبول الدم ويضر الشبان ويفسد الكبد ويبقى فى طبقات المعدة سبعة أيام وتصلحه المصطكى والورد الأصفر والأفسنتين والزعفران وشربته مثقال وبدله حشيش أو نصفه أفسنتين وربعه زعفران وإن لا يستعمل منه غير السقطرى (صبار) التمر هندى . أما (صحنه) لا تعرف إلا بالعراق ويقرب منها ما يعمل بمصر ويسمى الملوحة . وصنفته : أن يؤخذ السمك الصغير أو تقطع الكبائر هغارا وتترك ثلاثة أيام ثم تغمر بالماء والملح أياما حتى تنهري فتصفى وترفع والملوحة تبقى صحيحة وكله حار يابس فى أوائل الثانية يجلف الرطوبات ويذهب البخر وتنن الابط وينفع من الفالج وهى تعفن الخلط وتقرح وتعطش ويصلحها الزنجبيل بالخاصية والحلاوات .

المقالة الثانية

الفصل الاول

فى النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك

اعلم أن نيل مصر يمد وقت نضوب مياه الأرض وذلك فى شمس السرطان والأسد السنبله ، فيعلو على الأرض ويقيم أياما فاذا نزل عنها حرثت وزرعت ، ثم يكثر الندى فى الليل جدا وبه يتغذى الزرع الى أن يحصد ، ونهاية ما تدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانى عشرة ذراعا فان زاد على ذلك ، فانه يروى أمكنة مستعملة وكأنه نافلة وعلى جهة التبرع ونهاية ما يزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر أمكنة يدوم مكث الماء عليها فتفوت زراعتها ويبور من البلاد مما عادته أن يزرع نحو مما روى مما عادته أن يشرق ، ولنسم الثمانى عشرة نهاية الضرورى ولنسم العشرين نهاية الافراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها * فابتداء الضرورى ست عشرة ذراعا ويسمى ماء السرطان ، اذ عنده يستحق الخراج ويدوى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار ما يحان أهل البلاد سببهم جمعا مع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالرى بما زاد على ست عشرة ذراعا الى ثمانى عشرة ، وهذا يقل بمقدار

ما يميز أهل البلاد سنتين فصاعدا ، وأما ما نقص عن ست عشرة ذراعا فيروى به ما هو دون الكفاية ولا تحصل منه ميرة سنتهم ، ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا .

وحينئذ يقال ان البلاد قد شرقت ، واشتقاقها من قولهم شرقت الشمس اذا لمعت وظهرت ، وشرقت اللحم اذا نشرته ليجف ، ومنه قيل أيام التشريق لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها أى تبسط ، ومنه أيضا قولهم شرق بالماء وبالشراب لأن الماء عند الاغتصاص وانسداد الحلق يظهر ويبرز ولا يلج ، ولما كانت الأرض في السنة التي يوفى نيلها بارزة لا يسترها الماء ولا يخفيها الغمر قيل شرقت ولم تتغط ولم ينلها النيل ، ويجوز أن يكون التشريق ريحا شرقية ؛ لأن الرياح الشرقية والقبليّة وهى الجنوب هما عندهم دليل نقص الماء وسببه والغربية البحرية وهى الشمال هما عندهم دليل الزيادة وسببها ، فيكون معنى قولهم شرقت البلاد أى كثر هبوب الرياح الشرقية حتى نسفت الماء وأظهرت الأرض ، ثم سميت الأرض شرقية باسم الرياح وجمعت على شراقي مثل كرسى وكراسى وبختى وبخاتى . وأما النيل فهو فعل من نال نيلا ومن نال ينول نولا ، يقال نولته تنويلا ونلته نولا اذا أعطيته ، والنيل اسم ما ينال مثل الرعى للمصدر والرعى لما يرعى وليس هذا من غرضنا ولكنه أمر عن فقلنا فيه .

فمتى نقص عن الست عشرة ذراعا فهو ابتداء التفريط المقابل للافراط ، وكنا قد سقنا فى الكتاب الكبير سنى الافراط والتفريط منذ الهجرة الى سنتنا هذه ، وأما هنا فانما نقص ما شاهدنا على ما شرطنا .

واتفق أن زيادة النيل بلغت سنة ست وتسعين وخمسائة اثنى عشرة ذراعا واحدى وعشرين اصبعاً ، وهذا المقدار

نادر جدا ، فانه لم يبلغنا منذ الهجرة الى الآن أن النيل وقف على هذا الحد قط الا فى سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ فانه وقف على دون هذا المقدار بأربع أصابع ، وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعا وأصابع ، فانه وقع نحو ست مرات فى هذه المدة الطويلة ، وأما أربع عشرة ذراعا وأصابع ، فانه وقع نحو عشرين مرة ، وأما خمس عشرة ذراعا فأكثر من ذلك كثيرا ونحن نسوق أحوال زيادته فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ثم نتبع ذلك بما حصل عندنا من علل ذلك وقوانينه ، فنقول ان العادة جارية أن تبتدىء الزيادة من أبيب وتعظم فى مسرى وتتناهى فى توت أو بابيه ثم تنحط - فدخل أبيب فى هذه السنة وابتدأ النيل يتحرك بالزيادة وكان قبل ذلك بنحو شهرين قد بدت فى مائه خضرة سلقية ، ثم كثرت وظهرت فى رائحته ذفرة كريهة وعفونة طحلبية كأنه عصارة السلق اذا بقى أياما حتى يعفن وجعلت منه وعاء ضيق الرأس فعلاه سحابة خضراء فرفعتها برفق وتركتهما تجف اذا بها طحلب لا شك فيه ، ويبقى الماء بعد رفع هذه السحابة غير صاف لا خضرة فيه الا أن طعمه وريحه باقيان ، وتجذ فيه أيضا أجساما صفارا نباتية ميثوثة كالهباء ولا ترسب وصار أرباب الحمية يتجنبون شربه وانما يشربون ماء الآبار وأغليته بالنار ظنا منى أنه يصلح بذلك كما وصى الأطباء أن يفعل بالمياه المتغيرة فزاد طعمه وريحه كراهة وسهكا فوجدت عليه ، ذلك أن الأجزاء النباتية التى هى ميثوثة فيه يلطف الطبخ جوهرها فيختلط بالماء اختلاطا أشد عن الأول فيظهر التغير فى ريعه وطعمه أكثر ويصير ذلك بمنزلة الماء اذا طبخ فيه سلق أو فجل أو نحوه ، فان النار تمزج بين الماء ولطيف النبات ،

وأما الماء الذى يصلح بالطبخ وإياه قصد الأطباء فهو الذى
تغيره بمخالطته أجزاء أرضية ، فانها تنفصل عنه بالطبخ لأن
الماء حينئذ يطف قترسب فيه .

ثم انه دامت خضرته أياما من رجب وشعبان ورمضان ،
واضمحلت فى شوال ، وكان يصحب الخضرة دود وحيوانات
وهذا التغير فى الماء يكون بالصعيد أكثر لأنه أقرب الى المبدأ
والمعدن ، وانتهت زيادته فى الحادى عشر من توت الى اثنتى
عشرة ذراعا واحدى وعشرين اصبعاً ثم انحط . وورد فى
شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمن موت مطرانهم
ويلتمس عوضه ، وذكر فيه أن مطرهم فى هذه السنة ضعيف
وأن النيل قليل المد لذلك .

وكنا اقتصدنا فى ذلك الكتاب حال النيل فى هذه
السنة وفى السنين الخوالى ، رجاء أن نعثر على نسب بينها
وأعراض لها نقف منها على المتجددات من أحوال النيل فى
سنى النقصان ، فيمكننا مقدمة المعرفة وأخذ الأهبة والانداز
بالحوادث المتوقعة ، فان أقباط الصعيد يزعمون أنهم يتكهنون
على مقدار الزيادة فى السنة من طين معلوم الوزن ينجمونه
فى ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من
مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل ، وقوم يتكهنون من
حمل النحل ، وقوم من تعميل النحل .

فرايت فى الغالب من حال القاع اذا كان أقل من المعتاد
كانت الزيادة فى تلك السنة أقل من المعتاد هذا حكمه الأكثرى ،
فان أتت الخضرة فى أول زيادته وقبيلها ، قوى الظن بضعف
جريته فان طالت أيام الخضرة وضعف مقدار الزيادة ، قوى
الظن جدا بقلته فان دامت الخضرة فى أيبب أذن بقله
المد وعله هذا ظاهرة ، أما كون قلة القاع دليلا على قلة

الزيادة ؛ فلأن المطر الذى هو علة الزيادة ينبغى أن يكون فيه من الكثرة ما يرد القاع الى الحالة المعتادة يزيد عليها الزيادة المعتادة وهذه كثرة لا تنفى بها أمطار كل سنة ولا توجد كل وقت ، مثاله أن القاع اذا كان ذراعا مثلاً فينبغى أن تكون الزيادة الى عشر أذرع ويكون هذا أيسر من الأول * وأيضا ، فان جرية النيل الأصلية مادتها عيون ، وأما زيادته فمادتها أمطار ونقصان العيون دليل على احتراق السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك ، وأيضا فان المد الزائد على القاع أكثره فى الغالب ثلاث عشرة ذراعا فاذا كان القاع ذراعا أو ذراعين ثم زاد عليه أكثر المد وهو ثلاث عشرة ذراعا ، لم يلحق ماء السرطان * .

وأما كون الخضرة دليلا على قلة الزيادة ، فلأن النيل الماضى يغادر نقائع وغدراننا بعضها ينضب وبعضها يطحلب ويعطن ويأسن ، فاذا مرت بها أمطار ضعيفة اختلطت بها وصبتها الى النيل، ولم يكن فيها من الكثرة ما يغلب على النقائع فيصلحها بل النقائع تغلب على الأمطار المتصلة بها فتحيلها الى الفساد وينحط منها مقدار بعد مقدار ويتواصل الينا ، وكلما كانت الأمطار أضعف وأقل كانت أيام جرى الخضرة أطول فاذا كانت أمطار قوية ، غسلت تلك المستنقعات وغلبت عليها وحورتها بسرعة مغمورة بطين تجرفه بقوتها فيخفى منظرها ، ويتعفى أثرها * وأيضا فان الأنهار الخارجة من جبل القمر تجتمع بأخرى الى بركة عظيمة ذات مساحة فسيحة ومن هذه البركة يخرج هذا النيل، ولا شك فى أن هذه البركة ملؤها دائم فيطحلب ولا سيما شطوطها وضحاضحها فاذا وقع الوسمى وجرى اليها سيولة ، أثارت ما فى قعرها وحركت ما كان ساكنا فيها وانكسح أيضا ما فى الشطوط

الى الأوساط وانسحبت الى حمل الجرية فاستصحبته ، وأما كون الخضرة في أبيب دليل النقصان فلأن أبيب مظنة الزيادة وغلبة الماء على هذه الأوشاب فاذا بقى على خضرته ابان زيادته أذن بقلته ، وهذه الأجزاء النباتية التي تصحب الماء انما هي حطام النبات المتكون في الماء وحوله كالبردى والديس (١) والسمار المطحلب وغير ذلك فتعفن فيه وتصفّر أجزاؤه وتنبعث معه ، ومما يوجب انبعاثها أيضا نقصان الماء من تلك البركة فان ماءها اذا قل اتصلت الجرية بقعرها فانسحب كدرها وراسبها ، واذا كانت غمرا كانت الجرية من أعلاها وصفوها فاعرف ذلك . ولهذا لا تأتي هذه الخضرة الا في السنة التي يحترق فيها النيل وكلما كان احتراقه أشد ، كان ظهور الخضرة أكثر وفي السنة التي يكون نيلها غمرا لا يحترق لا ترى الخضرة ؛ لأن كثرته لكثرة مبدية وارتفاع جريه عن مقر كدورته .

فاذا اجتمعت هذه الدلائل كلها أو جلها في سنة فظننا قويا بأن الزيادة قليلة فيها فهذه فائدة هذا الاقتصاص ، وفيه فوائد آخر منها أن من يأتي بعد اذا أضافه الى ما يشاهده ، يوشك أن يعثر منه على مناسبة أو دلالة أخرى على مقدار الزيادة والنقصان في كل سنة ، ومنها ان أصحاب الأحكام النجومية اذا تأملوا المدد التي بين النقصانات والزيادات واعتبروا أحوال الكواكب والاقترانات فيها وطوالع مصر وبلاد السودان وأرباب الولايات فيها من الكواكب ومزجوا ذلك ، أمكن أن تقوم لهم مما يتكرر صورة تجريبية في مقدار الزيادة والنقصان فاني الى الآن لم أر لمنجمي مصر بذلك

(١) الديس عامية ، وهو جنس نبات من الفصيلة السعدية ويقال له أيضا أسل الخب

عناية ، ولم أجد عندهم ما تسكن اليه النفس سوى كسر ولا ينبنى على أصل •

فانه بهذا الطريق استخرج معظم أحكام النجوم ، وذلك أنهم شاهدوا حوادث أرضية تقترب بنصبات فلكية وحركات علوية ورصدوا ذلك فألفوه يتكرر ؛ ففسبوا تلك الحوادث الى تلك الهيئات والنصبات فصاروا متى عثروا فى تسييرهم لحركات الأشخاص العلوية على مثل تلك النصبية والهيئة حكموا بوقوع مثل تلك الحادثة •

ويروى عن أهل التجربة من قدماء الأقباط أنه اذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنى عشرة اصبعاً من اثنى عشرة ذراعاً فهى سنة ماء والا فالماء ناقص ، ورأيت بعض من شرح الثمرة لبطليموس ذكر فى تفسير الكلمة الأخيرة التى يقول فى أولها : النيازك تدل على جفاف الأبخرة فاذا كان فى جهة واحدة دلت على رياح تعرض فى تلك الجهة واذا كانت شائعة فى الجهات كلها ، دلت على نقصان المياه واضطراب الهواء وعلى جيوش تختلف ، فقال هذا المفسر: انى لأذكر فى سنة تسعين ومائتين أن الشهب بمصر انتشرت وعمت الجو بأسره فارتاع الناس ولم تزل تكثر فلم يمض لذلك جزء من السنة يسير حتى ظمىء الناس وبلغ نيل مصر ثلاث عشرة ذراعاً واضطرب الناس اضطراباً ، زالت به دولة الطولونى من مصر وانتشرت فى سنة ثلثمائة من سائر جهات الجو فنقص النيل أيضاً ووقعت همرجات واضطراب فى المملكة ، وهذه لعمري دلائل قوية ولكنها عامة لجميع الأقاليم وليست خاصة بمصر فقط • على أنه أيضاً قد وقع هذا الحادث بعينه فى سنتنا هذه من تناثر الكواكب فى أولها ونشيش الماء فى آخرها وتغير ملك مصر فيها بعمه الملك العادل بعد حرب كانت بينهما •

الفصل الثمانى

فى حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة سبع مفسدة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا فى البلاد ومزقوا كل ممزق ، ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل وبيء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والآرواث ، ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والأكل .

ورأيت صغيرا مشويا فى قفة ، وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة يزعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما .

ووجد فى رمضان وبمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم ، فأكل وبقى قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة ،

وكذلك كل من أثر الاطلاع على علم التشريح ، وحينما نشم الفقراء فى أكل بنى آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون فى ذلك استفظاعا لأمره وتعجبا من ندوره . ثم اشتد قربهم اليه واعتيادهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطية ومدخرا وتفننوا فيه . وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر : فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له .

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونها وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ؛ فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه .

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه .

وفى بعض الليالى بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها ، اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه ، وجعلت تأكل منه نيا . وحكى لى عدة نساء أنه يتوثب عليهن لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن .

ورأيت مع امرأة فطيما لحيماء فاستحسنته وأوصيتها بحفظه ، فحككت لى أنها بينا تمشى على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله وأن الولد بقى مدة مريضا لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس ، وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين فى جميع أقطار البلاد وأزقة

الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونسأؤهم
يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في
الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ .

وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلة
فيه الا أن النساء أقل حيلة من الرجال وأضف عن التباعد
والاستتار . ولقد أحرق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون
امراة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، فرأيت امراة قد
أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل شوى فضربت أكثر من
مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جوابا ، بل تجدها قد
انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت .

واذا أحرق أكل أصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء
ويستغنى عن طبخه .

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى فنى أكثرهم ،
ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم
من يفعله حاجة ومنهم من يفعله استطابة . وحكى لنا رجل
أنه كان له صديق أدقع فى هذه النازلة فدعاه صديقه هذا
الى منزله لياكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل ، فلما
دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم
طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز ؛ فراه ذلك وطلب المرحاض
فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمى وبالحم الطرى
فارتاع وخرج فارا .

وظهر من هؤلاء الخبشاء من يصيد الناس بأصناف
الحبائل ويجتلبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل (١) ، وقد جرى
ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابنى ، أما أحدهم فان أباه

خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها ، وأما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضه فى الشارع بزعمه وجعل فى أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الأجر ومثل هذا فليعمل العاملون ، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك فحسن الظن بقلبه وقوة الطمع تجذبه ، حتى أدخله دارا خريبة فزاد استشعاره وتوقف فى الدرج وسبق الرجل فاستفتح ، فخرج اليه رفيقه يقول له : هل مع ابائك حصل صيد ينفع ، فخرج الطبيب لما سمع ذلك ، وألقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها السعادة فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل .

ووجد بأطفيح (٢) عند عطار عدة خوابى مملوءة بلحم الآدمى وعليه الماء والملح فسأله عن علة اتخاذه والاستكثار منه ، فقال : خفت اذا دام الجذب أن يهزل الناس وكان جماعات من الفقراء قد آووا الى الجيزة وتستروا ببيوت طين ، يتصيدون فيها الناس وفطن لهم وطلب قتلهم فهربوا ، ووجد فى بيوتهم من عظام بنى آدم شئ كثير ، وخبرنى الثقة الذى وجد فى بيوتهم أربعمئة جمجمة .

ومما شاع وسمع من لفظ الوالى أن امرأة أتته سافرة مدعورة تذكر أنها قابلة ، وأن قوما استدعوها وقدموا لها صحن فيه سكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فألفته كثير اللحم ، مباينا اللحم المعهود فتقرزت منه ثم وجدت خلوة

(٢) من قرئ مركز الصف بالجيزة . القاموس الجغرافى ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم ، فقالت انها فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وها هي معلقة اربا ، فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها انا بئر لحم فلما قصت على الوالى القصة ارسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه فى خفية بثلثمائة دينار ليحقق بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك ، أن امرأة ذات مال ويسار كانت حاملا وزوجها غائب فى الخدمة وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هى عادة الجبالى فألفته لذيذا فاستزادتهم ، فزعموا أنه نفذ فسألهم عن كيفية عمله فأسروا اليها أنه لحم بنى آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها فضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جوارىها خوفا منها ؛ فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد فى جوفها .

ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظلانه وانما هو شىء صادفناه اتفاقا بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره .

وأما من يتعين ذلك بدار الوالى فانه يجد منه أصنافا تحضر مع آناء الليل والنهار؛ وقد يوجد فى قدر واحدة اثنان وثلاثة وأكثر ، ووجد بعض الأيام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطبوخا بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء .

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع فى حبالتهم شيخ كتبى بدين ممن يتبيعنا الكتب فأقلت بجريعة الذقن * وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع فى حبالة قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج من أهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير ! وحكى لى من أثق به أنه اجتاز على امرأة تجرية (٣) وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهى تأكل من أفخاذه فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها ، وكثير ما يدعى الأكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ، ورئى مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت انما هو ولد ابنتى وليس بأجنبى منى ولأن آكله أنا خير من أن يأكله غيى *

وأشبه هذا كثير جدا حتى انك لا تجد أحدا فى ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى أرباب الزوايا والنساء فى خدورهن *

ومما شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم * وهذه البلية التى شرحناها وجدت فى جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي *

وخبرنى بعض أصحابى وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك * وأعجب ما حكى لى أنه عاين رؤس خمسة صغار مطبوخة فى قدر واحدة بالتوابل الجيدة * وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فأنى وان كنت قد أسهبت أعتقد أنى قد قصرت *

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في سراكب يرخصون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم ، وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذى خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار .

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا ، فأمر لا يطيق عمله الا الله سبحانه وتعالى وانما نذكر منه كالأتمودج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر .

فالذى شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشى أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو فى السياق أو على جمع كثير بهذا الحال ، وكان يرفع عن القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين مائة الى خمسمائة ، وأما مصر فليس لموتها عدد ويرمون ولا يوارون . ثم بآخرة عجز عن رميهم فبقوا فى الأسواق بين البيوت والدكاكين وفيها الميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه .

وأما الضواحي والقرى، فانه هلك أهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضا فلم يبق فيها الا محلة القسم وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين، بعضهم قد رم وبعضهم طرى وربما وجد فى البيت أثاثه وليس له من يأخذه .

حدثنى بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر ، قال أحدهم : دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا فى الأرض ولا طائرا فى السماء فتخللنا البيوت؛ فألفينا أهلها كما

قال الله عز وجل : «**جعلناهم حصيدا خامدين**» فتجد ساكنى كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده ، قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربعمائة دكان للحياكة فوجدناها كالتى قبلها فى الخراب ، وان الحائك ميت وأهله موتى حوله ، فحضرنى قوله تعالى : «**ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون**» قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالدنى قبله ليس به أنيس وهو مشجون بموت أهله ، قال : واحتجنا الى الاقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال ولكن قد بدلت البلاد بالدئاب والضباع ترفع لحوم أهلها * .

ومن عجيب ما شاهدت أنى كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا فى نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر ، وفى غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى فى الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بآنابيش العنصل(٤) وخبرت عن عياد بفرضة تنيس أنه مر به فى بعض نهار أربعمائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبنى آدم بل محصرة ، وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان طلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هى التى تأكل فيهم * .

وأول من هلك فى هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا فى هذه المسافة مع طولها

(٤) العنصل بفتح العين وضم الصاد أو فتحها البصل البرى والجمع عناصل

(ابن منظور) *

كالجراد المحسوس ، ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى
انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم
والغرب واليمن ومزقوا كل ممزق •

وكثيرا ما كانت المرأة تملص من صبيبتها فى الزحام
فيقتضون حتى يموتوا •

وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله ،
حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض على
جاريثان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريثين
احدهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهما •

وسألتنى امرأة أن اشترى ابنتها وكانت جميلة دون
البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها أن ذلك حرام ، فقالت خذها
هدية وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة
على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق
عظيم ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك •

وأعجب من جميع ما اقتصصناه أن الناس مع ترادف هذه
الآيات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يراعون منغمسون فى
بحر ضلالاتهم ، كأنهم هم المستثنون • فمن ذلك اتخاذهم بيع
الأحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان
منهم من يزعم أنه اقتضى خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين
كل ذلك بالكسر (٥) •

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين
فهو مما يلزم هذه الجملة التى اقتصصناها وناهيك أن
القرية التى كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر

(٥) أى بمبلغ يسير أى كسر الدرهم أو الدينار •

عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها وربما لم يوجد، وأما مصر
فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس
وما تأخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا بعد ما كان كل
قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس، حتى ان الرباع والمساكن
والدكاكين التى فى سرّة القاهرة وخيارها أكثرها حال خراب
وان ربعا فى أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا
كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت من يحرس الموضع •

ولم يبق لأهل المدينة وقود فى تنانيرهم وأفرانهم
وبيوتهم الا خشب السقوف والأبواب والزروب (٦) •

ومما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين مازالوا
مجدودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب
متجره فى القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه
بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف • فتبارك
من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط •

وأما خبر النيل فى هذه السنة ، فانه احترق فى برمودة
احتراقا كثيرا وصار المقياس فى أرض جزر وانحسر الماء عنه
نحو الجيزة ، وظهر فى وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات
أبنية وتغير الماء فى ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف
أمره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الأيام ظهرت وكثرت
كالتى ظهرت فى أبيب السنة الخالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد
الى آخر شعبان ثم تناقصت الى أن ذهبت وبقي فى الماء أخيرا
نباتية منبثة فقط وطاب طعمه وريحه ثم أخذت فى رمضان

(٦). جمع زريبة وهى مكان الماشية والدواب •

تنمى وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه ، فقاس فيه ابن أبى الرداد قاع البركة فكان ذراعين وأخذ فى زيادة ضعيفة بأضعف من السنة الخالية ولم يزل فى زيادة ضعيفة الى ثامن ذى القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد اصبعا ثم وقف ثلاثة أيام ؛ فأيقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ثم أخذ فى زيادات قوية أكثرها ذراع الى ثالث ذى الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعا وست عشرة اصبعا ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ، ومس بعض البلاد محلة القسم فكانما زارها طيف خياله فى الحلم .

وانما انتفع به ما كان من البلاد مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها ، غير أن القرى خالية من فلاح أو حراث أصلا فهم كما قال الله تعالى : « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » ، وانما أرباب الحراث يجمعون شذاذهم ويلتقطون أفرادهم ، وقد عز الحراث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقه ولغير وقته ؛ اذ ليس لها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع أكلته الدودة وكثير مما سلم منها ضوى وعطب .

ونهاية سعر القمح فى هذه السنة خمسة دنائير ، وأما بقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنائير .

ومن الله سبحانه يرجي الفرج وهو المتيح للخير بمنه

وجوده .

الفصل الثالث

فى حوادث ستة ثمان وتسعين وخمسمائة

ودخلت هذه السنة والأحوال التى شرحناها فى السنة الخالية على ذلك النظام أو فى تزايد ، الى زهاء نصفها فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب وتناقص أكل بنى آدم ثم انقطع خبره أصلا .

وقل خطف الأطمعة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك (١) وقتلهم من المدينة ، وانحطت الأسعار حتى عاد الاردب بثلاثة دنائير لقلّة الأكلين لا لكثرة المأكول ، وصفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة وآلف الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعى .

وحكى لى أنه كان بمصر تسعمائة منسج للحرير ، فلم يبق الا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك .

(١) المقصود أهل البلاد وليس المالك . راجع مقدمة المحقق .

وأما الدجاج فعندم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكى لى أن رجلا مصريا شارف الفقر فآلهم أن يشتري من الشام دجاجا بستين دينارا ، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانمائة دينار ، ولما وجد البيض يبيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم أربعا واستمر على ذلك ، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا .

وأما الأفران فأنها توقد بأخشاب الدور ، فيشتري الفران الدار بالثمن البخرس ويقد زروبه وأخشابه أياما ثم يشتري آخر ، وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا .

وكثيرا ما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشتريا فيفصل أخشايها وأبوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها مهدومة وكذلك أيضا يفعلون بدور الكسرا .

وأما الهاللية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس ، وإنما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيرا من أهلها موتى فيها . ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر فى غاية العمارة وأهلها فى غاية الكثرة .

وأما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا ، حتى ان المسافرين يسير فى كل جهة أياما لا يصادف حيوانا الا الرمم ما خلا البلاد الكبار كقوص وأخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية ، فان فيها بقايا وأما ما عدا هذه وأمثالها فان البلد الذى كان يحتوى على ألوف خال أو كالخالى .

وأما الأملاك ذوات الأجر المعتبرة ، فان معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها الا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها

أو اسكانها من يحرسها بأجرة ، اللهم الا ما كان من الملك فى قسبة المدينة فان بعضه مسكون بأخف أجرة ، وأعرف ربعا فى أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته فى الشهر مائة وخمسين دينارا ، فعادت فى هذه السنة الى نحو عشرين دينارا ، وآخر فى مثل موضعه كانت أجرته فى الشهر ستة عشر دينارا ، فعادت الى فويق الدينار ، وجميع ما لم تذكره على هذا القياس افهمه .

والذى دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كف وجري له اسم فى الديوان وضمته الميضات فى مدة اثنين وعشرين شهرا أولها شوال من سنة ست وتسعين ، وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين ، مائة ألف واحد عشر ألفا الا أحادا وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دارهم وفى أطراف المدينة وأصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر فى جنب من اكل فى البلدين ، وجميع ذلك نزر جدا فى جنب من هلك واكل فى سائر البلاد والنواحي والطرق وخاصة طريق الشام ، فانه لم يرد أحد من ناحية فسألته عن الطرق الا ذكر انها مزروعة بالآشلاء والرسم وهكذا ما سلكته منها .

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد لا سيما عند وقت الزراعة ، فلعله يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين ، وحكى لنا أن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا .

وباشرنا زراعة لبعض الرؤساء فأرسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم ، هكذا مرات فى عدة جهات وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة ،

وان تركة واحدة انتقلت في مدة شهر الى أربعة عشر وارثا ،
وان طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفا انتقلوا الى
برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها ، وهذه برقة كانت مملكة
عظيمة وخربت في زمن اليازوري (٢) وعلى يديه ، وكان
وزيرا ظالما ، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية ،
وكان هذا الحادث تقاص في الطبيعة *

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن
ينتابني سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل زبونه ذو
شارة وشهرة بستر ودين وجدة ، فلما حصل في المنزل أغلق
الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا ومرت المريض خصيتيه
غير أنه لم تكن له معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجها
فتسمع الناس ودخلوا ، فخلصوا الشيخ وبه رمق يسير
وقد كسرت ثنيتاه وحمل الى منزله مغشيا عليه وأحضروا
الفاعل الى الوالى فسأله ما حملك على ما فعلت ، فقال :
الجوع فضربه ونفاه *

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين
من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس ان حدثت
زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس ، فهبوا من مضاجعهم
مدهوشين وضجوا الى الله سبحانه ولبثت مدة طويلة وكانت
حركاتها كالغريزة أو كخفق جناح الطائر وانقضت على ثلاث
رجفات قوية مادت بها الأبنية واصططفت الأبواب وصرصرت
السقوف والأخشاب وتداعى من الأبنية ما كان واهيا أو

(٢) الحسن بن على بن عبد الرحمن ، ابو محمد اليازوري وزير من الدهماء ولى في
مازور (من قرى الرملة بطلسطين) سكن الرملة وولى الحكم بها واتصل بالمستنصر
الفاطمي فاستوزره سنة ٤٤٢ هـ وجعله قاضى القضاة ، وهو الذى دبر فتنة البساسيري
وشارك على العباسيين واستمر في الوزارة الى أن قُبض عليه المستنصر بسبب وشاية
وقتله سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، الاعلام للزركلي ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، *

مشرفا عاليا ثم عاودت فى نصف نهار يوم الاثنين ، الا أنها لم يحس بها أكثر الناس لحفائها وقصر زمانها وكان فى هذه الليلة برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفى نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الأنفاس ويأخذ بالكظم وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الأخبار تتواتر بحدوث الزلزلة فى النواحي النائية والبلاد النازحة فى تلك الساعة بعينها ؛ ولذا صح عندى انها حركت فى ساعة واحدة طابقة من قوص الى دمياط والاسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وأسم لا تحصى ، ولا أعرف فى الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فانها لم تنك فيه الا ما لا بال ، كانت نكاية الزلزلة ببلاد الافرنج أكثر منها فى بلاد الاسلام كثيرا .

وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها الى جزيرة قبرص ، وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفريق فى مواضع وصارت فرقه كالأطواد وعادت المراكب على الأرض وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ووردت كتب من الشام ودمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة . ومما اتصل لى من ذلك كتابان أوردهما بلفظهما .

نسخة الكتاب الوارد من حماء

ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت زلزلة ، وكادت الأرض تسير سيرا والجبال تمور مورا وما ظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة وأتت دفعتين فى ذلك الوقت ، أما الدفعة الأولى فاستمرت مقباده ساعة أو تزيد

عليها ، وأما الثانية فكانت دونها ولكن أشد منها وتأثر منها بعض القلاع فأولها فلقه حماء مع اتقانها وعمارتها وبارين مع اكتنازها ولطافتها وبعلمك مع قوتها ووثقاتها ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة الى الآن ما أذكره .

ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في علمها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت في هذا اليوم أيضا وقت صلاة العصر وصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة أفسدت فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الطوسة والبيمارستان جميعه وعدة مساكن تساقطت على أهلها وهلكوا .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق

المملوك ينهى حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان وقت انفجار الفجر وأقامت مدة . قال بعض الأصحاب : انها مقدار ما قرأ سورة الكهف ، وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم . ومما أثرت في البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع واحدى المآذن وتشقق أخرى وفيه الصاحى يعنى النسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور .

وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقط بعضها وصعد كذلك ولم يبق بها الا من هلك سوى ولد صاحبها وكذلك تبنين وناپلس لم يبق لها جدار قائم سوى حارة السمرة ويذكر أن القدر سالم والحمد لله .

وأما بيت جن فلم يبق منه الا الأساس والجدران وقد أتى عليها الخسف ، وكذلك أكثر بلاد حوران غارت لا يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية . ويقال ان عكله سقط اكثرها وصدر ثلثها وغرفة خسف بها وكذلك صافينا .

وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس اليه بين جبليين يجمع منه الريباس الأخضر ، فيقال ان الجبلين انطبعا على من بينهما وكانت عدتهم تناهز مائتى رجل وقد أكثر الناس فى حديثها .

وأقامت بعد ذلك أربعة أيام تحدث فى النهار والليل . ونسال الله لطفه وتدييره وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابنى فى الطب وصلوا الى كتاب التشريح فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان فأخذنا أن بالمقس تلاقية رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة ، يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به نحدث ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا فصاعدا وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده .

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيد من الكتب . اما انها سكنت عنها أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها والحس أقوى دليلا من السمع ، فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكىه ، فان الحس أصدق منه .

ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرج ان أمكن فمن ذلك عظم الفك الأسفل ، فان الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل

وثيق عن الحنك وقولنا الكل انما نعنى به ها هنا جالينوس وحده فإنه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عليه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج الى لسان العرب .

والذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى اشخاص كثيرة تزيد على الفى جمجمة بأصناف من الاعتبار فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ، ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيناه وكذلك فى أشياء أخرى غير هذه وليت مكنننا المقادير بالمساعدة ووضعنا مقالة فى ذلك تحكى فى ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس . ثم انى اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها ، فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق وهذا الفك الأسفل لا يوجد فى جميع أحواله الا قطعة واحدة .

وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم ووجدته أنا عظما واحدا واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ، ثم انى اعتبرته فى جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته فى سائر الجثث على ما قال الا فى جثتين فقط فانى وجدته فيهما عظما واحدا وهو فى الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل .

ثم اننا دخلنا مصر فرأينا منها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام ، والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر

سبيل فى بعض الأحياء ، وان المار فيها ليستوحش ومع ذلك ،
 فقلما يندفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا
 الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فرأينا الأقطار كلها
 مفتتحة بالجثث والرمم وغلبت على الآكام بحيث جلمتها
 وكادت تغلب على نرابها ورأينا فى هذه الأسكرجة وهى
 وهدة عظيمة حينما أشرفنا عليها الجماجم بيضا وسودا ،
 ووجدنا بعضها على بعض طبقات وقد أخفى كثرتها
 وتراكمها سائر العظام حتى كأنها رءوس لم يكن معها أبدان
 يشبهها من ينظرها ببطيوخ قد قطع وجمع حتى صار كالبيدر ،
 ثم رأيتها بعد أيام وقد عرقتها الشمس وابيضت فشبهتها
 ببيض النعام المتراكم .

ولما رأيت خلو تلك الحارات والأسواق من الناس وامتلأ
 تلك الصحارى والآكام ، خيل الى أنه سفر ارتحل فأخلى مكانا
 وشغل آخر هذا ، مع أنه اية جهة نحاها القاصد صادف فيها
 ما خكيننا وأضعافه .

ووجد فى ذى الحجة بمصر امرأة ذبحت صبيا لتأكله
 فأخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها
 ومشاهدتها لم يوجد سوى هذه المرأة . ومن عجيب الكائنات
 فى هذه المدة أن مولودا فى سبع وتسعين ولد براسين وولد
 مولود آخر أبيض الشعر ورأيته وليس هو كبياض الشيب ،
 بل يحيل الى صهوية ما . ولدت فى هذه السنة بغلة ولدت ميتا
 وبقي فى دار الوالى أياما كثيرة ، وفى سنة ثمان وتسعين
 وجدت سخله ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيط
 دقيق وأحضرت بدار الوالى مرات وآخر ما أحضرت وعمرها
 أربعة أشهر .

وأما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه باختصار
أما أولا ، فانه احترق في طوبة ثم تزايد احتراقه حتى صار
مخاضات للناس والدواب وظهرت الحفرة فيه في جمادى
الآخرة الكائن في برمهاة وتزايدت جدا في رجب حتى
ظهرت في طعمه ولونه وريحه ثم تناقصت حتى ذهبت أصلا
وانتهى احتراقه في رمضان ، وانحسر عن المقياس نحو
ثمانمائة ذراع ، وأطالع أبى الرداد باستقرار الماء يوم
الثلاثاء لخمس بقين من يؤونة وأربع بقين من رمضان من
سنة ثمان وتسعين فكان القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة
الخالية ذراعين ، وابتدأ في الزيادة في السنة الخالية من
هذا اليوم ، فأما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى
الخامس والعشرين من أيبب لم يزد في هذه المدة سوى
أصابع ، حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس وظنوا أن
حادثا وقع بفوهته وعند مبدا جريته ، ثم أخذ في الزيادة
حتى انسلخ أيبب وهو على ثلاث أذرع ووقف يومين ؛ فاشتد
هلع الناس لخروجه في التسوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع
بقوة وزيادات متداركة وجبال من المياه متدافعة ؛ فزاد
ثمانى أذرع في مدة عشرة أيام منها ثلاث أذرع متوالية ،
وانتهى في رابع توت وهو الثانى عشر من ذى الحجة الى
ست عشرة ذراعا تنقص اصبعما وقام يومين ، ثم أخذ ينحط
متباطئا وينصرف رويدا - فهذا ما قصدت اقتصاصه من
أحواله هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنتهى الكتاب .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد
النبي الأمى وعلى آله الطيبين الطاهرين .

كتبه مؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف
ابن محمد البغدادي في رمضان سنة ستمائة بالقاهرة .

الكشاف

(١)

- الأسرافيلي : ٦٩
 الأسفنفور : ٨٥
 اسكرجه قرعون : ١٥١
 الاسكندر : ١٠٠ ، ١١٢
 الاسكندرية : ٢٨ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ١١٢ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 اسسنا : ٥٥
 الاسسهال : ٦٩
 اشعب : ٧٣
 الاصباغ : ١١٥ ، ١١٦
 الاممعي : ٧٣
 اطبيخ : ١٣٥
 اقاذيمون : ١٢
 الاثروديسي : ١١٢
 افريقيا : ٢٠
 الافغان : ٢٩
 الاقيون : ٧٦
 الافاقيا : ٧٧
 اقباط
 انظر
 قبط
 الاقربانين : ٢٠
 اكل لحوم البشر : ٢٠
 الاملح : ٢٧
 الانباري ، كمال الدين عبد الرحمن : ٣٦
 الاندلس ، ابن سعيد : ٢٩
 الانطاكي ، داود : ٢٢
 الانعاط : ٨٥
 اهرام : ١١ ، ١٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٢
 الابار : ١١٤
 ابراهيم (عليه السلام) : ٩٤
 ابن اسحق ، حنين : ٢١
 ابن با يشاذ : ٣٩
 ابن برهان : ٣٧
 ابن بطوطة : ٢٩
 ابن البعنى : ٣٥
 ابن البيطار : ٢١ ، ٢٢
 ابن جبير : ٢٨
 ابن جلجل : ٢١
 ابن حمزة ، عمر : ٣٧
 ابن سكينه : ٣٩
 ابن سحجون : ٦٧
 ابن سلام : ٤٠
 ابن سناء الملك : ٤٢
 ابن سيرامون : ٢١
 ابن سينا : ٣٩
 ابن فضلان : ٢٩ ، ٣٠
 ابن قتيبة ، غريب : ٤٠
 الابنوس : ٧٧
 ابن يونس : ٤٠
 ابو الناسم الشارعى : ٤٣
 ابو الهول : ٩٦
 اسايك شهاب الدين : ٤٦
 اترج : ٧٤ ، ٧٥
 الاناب : ٦٣
 الاحاجي : ٦٢ ، ٧٩
 الاجنك : ١٩
 ادريس (النبى عليه السلام) : ٩٣
 ارزجان : ٤٦
 ارسطو : ٦٣ ، ١٠٤ ، ١١٢

(ب)

- البهيق : ٢٧
 بوصيد : ٨٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٥٠
 البوطة : ١٢٣
 بولس : ١٧
 بيت جن : ١٤٩
 بيتس ، جوزيف : ٢٣
 (ت)
 التبريزي ، الخطيب : ٣٨
 تبين : ١٤٨
 التجراذيين (التجريين) : ١٩
 القرسة : ٨٨
 الترفيد : ٨٠
 الترمس : ٧٧
 التفاح : ٧٥ ، ٧٧
 التلويح : ٨٢
 التماسيح : ٢٧ ، ٨٤
 التمر : ٧٥
 تمساح برى : ٨٥
 تهامة : ٦٧
 التوراه : ١٧ ، ١١٢
 التفشاش : ٢٧
 التين : ٦٥
 (ث)
 ثعبان الماء : ٨٨
 الثوم : ٦٨
 (ج)
 جامع ابن طولون : ١٣٧
 جالينوس ، كتاب : ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١٥٠
 الجاموس : ٨٦
 جبل القمر : ٥٦
 جبل لبنان : ١٤٩
 جدة : ٢٨
 الجاعة : ٧٠
 جابل : ١١٢
 جارين : ١٤٨
 الجبال : ٧٨
 الجبال : ٦٩
 الجبال : ٦٩
 البامية : ٦٠
 بانثياس : ١٤٨
 بحران : ٩٤
 بخارى : ٢٩
 بختنصر : ١٠٠
 البديدة : ٩٤
 البردى : ١٣٠
 برفة : ١٤٦
 البنسام : ٦٧
 بصل : ٢٥ ، ٦٨ ، ٧٠
 بطليموس : ١٣٠
 البطيخ : ٧٤ ، ٧٨ ، ١٥١
 البطيخ الرقى : ٧٨
 البطيخ الرقش : ٧٨
 البطيخ العبدلى : ٧٧ ، ٧٨
 البطيخ الغربى : ٧٨
 بعلبك : ١٤٨
 البغفال : ٢٤ ، ٨٤ ، ٨٦
 بغداد : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ١٤٠
 البغدادي ، عبد اللطيف : ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٣٨
 البقر : ٨٣ ، ٨٦
 بقراط : ١١٢
 بلاد نمم : ١٩
 البليح : ٦٢ ، ٧٢
 البلسان : ٦٥ ، ٦٦
 البندقية : ١١٩
 البتفسج : ٧٩
 بنو العباس : ١١٢

الخس : ١١٨
 الخشخاش : ٧٦ ، ١١٩
 الخشخشية : ١١٩
 الخشكان : ١٢٠
 حط الاستواء : ٥٦
 الخطمي . ٦١
 الخنزير : ٨٦
 خوارزم . ٢٩
 خرخ : ٧٩
 الخيار ٦٧ ، ٧٧
 خيار شمندر ٧٩
 الحيل ٨٤

(د)

الدار صيني : ٢٧
 الدياء : ٧٨
 الدجاج : ٨٨
 الدخن : ٧٦
 درب القالونج : ٣٦
 الدلب : ٦٣ ، ٧٩
 الدلفين : ٨٤
 الدلينس : ١٢٢
 دمشق ١١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ،
 ٦٨ ، ٧٠ ، ٩٤
 دموة : ٩٩
 دمياط : ٥٦ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ١٢٣ ،
 ١٤٥ ، ١٤٧
 دميرة : ٧٨
 الدند : ٦٢
 دنفيق : ٥٩
 الدولة الطولونية : ١٠
 الدولة الفاطمية : ١٠
 الديس : ١٣٠
 الدينوري ، أبو حنيفة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٧٣ ، ٧٧
 ديو سفوريس : ٦٩ ، ٨٥

جراجوس : ٥٩
 جرجير : ٨٦
 الحزام : ٢٧
 الجزر : ١١٩
 الجلا : ١٩
 الجلاب : ١١٩
 جلال مظهر ، ٣١
 جله : ٨١
 الجمل : ٨٦
 الجمين : ٦٤ ، ٦٥ ، ١١٤
 الجوز : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧
 الجيزة : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٣٥ ، ١٤١

(ح)

حارة الساسة : ١٤٤
 حارة السحرة : ١٤٨
 الحبشة : ١٠٩
 الحجاز : ١٣٠
 الحديث : ٣٥
 الحراجية : ٥٩
 الحردون : ٨٥
 الحصرم : ١٢١
 حلب : ٤٦ ، ٤٧ ، ١٤١
 الحمائل : ٢٤
 الحمامات : ٦٣
 حماة : ١٤٨
 الحمير : ٨٣
 حوران : ١٤٩

(خ)

الخبازي البستاني : ٦١
 الخبز : ١٢٢
 حبيص : ٧٢ ، ١١٨ ، ١١٩
 خراسان : ٣٦ ، ١٤٠
 الخردل : ٧٢
 الخروب : ٧٩
 خروب القرط . ٧٧

(د)

السماق : ١٢٣

الذرة : ٧٦

السماقية : ٦٨

سمائي الغيط : ١٢٣

(ر)

السمرة : ١١

الرتيلاء : ٦٤

السماتير : ١١١

رجلة : ١١٩

السمبوسك : ١٢١

الرعاد : ٨٧

السمداب : ٦٥

رغيف الصينية : ١١٩

السلط : ٧٦ ، ٧٧

رمان : ٧٩

السودان : ٥٧ ، ٦١

الروم : ١١٢ ، ١٤٠

السويقي : ٦٩ ، ٨٦

سيبوية : ٣٨

(ز)

السبرج : ١٢٠

الزبل : ٨٢

(ش)

الزعفران : ٦٩

الشماس : ٢٨ ، ٣٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٥ ،

رفاق البركة : ١٤١

٧٦ ، ٧٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٤٧

الزبدقي : ٧٨

الشدة المستنصرية : ١٠

الزججيل : ٢٢ ، ٧٠ ، ١١٩ ، ١٢٠

شرق أفريقيا : ٢٩

الزججيلية : ١١٩

الشعراني : ٥٩

الزهرأوى ، خلف بن عباس : ٢١

الشعري : ٦٧

(س)

الشلق : ٧٨

ساسى : ٨٠

سنهور : ٥٩

السامرة : ١١

الشهرستاني : ١٢ ، ١٦

السيحق : ١٩

الشوشنديا : ٦١

ست المنوية : ١١٩

الشوكة المصرية : ٧٦

ستيقن ، كتاب : ٢١

سبح المعلى : ٦٨

(ص)

سحليه : ١١٢

الصايون : ١١٨

السدر : ٧٩

الصابئة : ١٢ ، ١٦ ، ١١٢

السدرية : ٦٣

الصبا : ٥٨

السرب : ٨٨

الصبر : ١٢٣

السرلينس : ٨٨

الصحناء : ١٢٢

السفرجل : ٧٩

الصعيد ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٨٥

السلجم : ٦٧ ، ١١٨

صقلية : ٢٨

سلحفاة : ٨٨

صالح الدين ، يوسف بن يونس : ٤١ ،

السمعان : ٧٤

- عمرو بن العاص : ٩٨
عمود السوارى : ٩٧ ، ٩٨
العهد القديم : ١٧
العود : ١١٩
عذاب : ٢٨
عين شمس : ٩٦
(غ)
الغريبة : ١٤٥
غرناطة : ٢٨
(ف)
الفار : ١٢٣
فارتيميا : ٢٠
فارس : ٢٩ ، ٦٣
الفارسي ، ناصري خسرو : ٢٨
الفجل : ١١٨
فاراييج : ٨٠ ، ١٤٤
الفرس : ١١٢
فارس البحر : ٨٦
الفرنج : ٤٣
الفسنق : ٧١ ، ١١٩ ، ١٢٠
الفسقفية : ١١٩
الفسطاط : ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٩٠ ، ١١٢
الفنوص ، فناء : ٧٧ ، ٧٨
فلج أرسلان : ٤٦
القلسفة : ٤١
الفلفل : ١٢٠
القول : ٧٨
القولجا : ٢٩
القيوم : ١٣٨ ، ١٤٥
(ق)
القار : ١١٠
القاضي الفاضل : ٤١ ، ٤٢
القاهرة : ٨٧ ، ٩٠ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤١
القيّد : ٧٧
- ٤٤ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٨
الصيدلة : ٢٠
الصين : ٢٩
(ط)
الطب
الطلمسات : ٣٩
طنجة : ٢٩
طوخ : ٥٩
الطوسنة : ١٤٨
(ظ)
الظاهرى ، ابن حزم : ١٢
(ع)
العادل : ٤٥
العادل ، ملك : ٩
عازد يعون : ٩٣
عباسة : ٥٩
عبد الله ، موفق الدين : ٣٥
العبدلاوى ، البطيخ : ٧٧
العبدري : ٢٩
العجوة : ٧٥
العراق : ٢٨ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ،
١١٢ ، ١١٢
العزيم عثمان بن يوسف : ٩٤
عسقلان : ٦٤
عقص : ٢٢
عكا : ٤١ ، ٤٢
عكلة : ١٤٩
علاء الدين داود بن بهرام : ٤٦
علم الاغدية : ٢١
علم الصيدلة : ٢١
على بن رضوان : ٧٠
العماد الكاتب الاصبهاني : ١٠
عمي بن الخطاب : ٩٨

- الفخذ ، الخيار : ٧٧
 الغشاء : ٦٠
 القدس : ٤١
 غدير الهراس : ١١٥
 القرآن : ٣٥ ، ٣٦
 القراءات : ٣٥
 قراجا : ٩٨
 القراسيا : ٧٩
 قراقوش : ٨٩
 القرط : ٧٥
 القرط : ٢٢ ، ٧٦
 الغرقة : ١٢٠
 القرم : ٢٩
 القزويني ، الرضى : ٣٩
 القسب : ٧٥
 القسط : ٦٨
 المسططينية : ٢٩
 القطران : ٢٧
 القلزم : ٨٥ ، ٩٥
 القلعة : ٩٠
 القلقاس : ٢٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢
 قمولة : ٥٩
 قوص : ٢٨ ، ٥٩ ، ١١٠ ، ١٤٧
 القولنج : ٢٦
 (ل)
 الكتاب ، عماد الدين : ٤١
 الكتان : ٨٠
 كراشفوسكي : ٢٧
 الكرخي ، ابن عبيدة : ٣٨
 كردستان : ٢٩
 الكزبرة : ١٢٠
 الكعبة : ٩٤
 الكلف : ٢٧
 الكثرى : ٧٩
 الكمون : ٢٧ ، ١٢٠
 خيثاباذ بن كيشيرو : ٤٦
 الكيمياء : ٣٩ ، ٤١
 (ل)
 اللبخ : ٦٢ ، ٦٣
 اللثا : ٦٦
 لجة : ٨٨
 اللوييا : ٦٠ ، ٧٧
 اللوثة : ٦٢ ، ٧٩ ، ١١٩
 الليمون : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ١١٩
 (م)
 ماء ورد : ١٢١
 الماش : ٧٦
 المتنبي : ٣٦
 الملح : ٧٦
 المجوس : ١١٢
 المدائن : ١١٢
 المريس ، رياح : ٥٩
 المريس : ٥٩
 المستنصر بالله : ٤٨
 مسجد الغفرية : ٣٧
 مسك : ١٢١
 المسلة : ٩٧
 المسيد : ٥٩
 المصطكى : ١٢٠
 المغرب : ١٣٠
 المفرجية : ٥٩
 المقامات : ٣٦
 المقدسى : ٣٥
 المفسى : ١٤٦ ، ١٤٤ ، ١٤٩
 المظلم : ٥٩ ، ٩٠
 مكة : ٩٤
 الملاح : ١١٧
 ملطية : ٤٦
 الملوخية : ٦١
 المباليك : ٩

منف : ٥٩ ، ٩٩ ، ١١٤

الموز : ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣

موسى بن ميمون : ٤٢

الموهل : ٤٠ ، ١٤٠

(ن)

نابلس : ١١ ، ١٤٨

النارنج : ٧١ ، ٩٤

الناصر صلاح الدين : ٤٥

النبيق : ٧٩

نجد : ٦٧

النرجس : ٦٩

النصارى : ٢٤

نوح (عليه السلام) : ٩٤

النبيذة : ١١٨ ، ١٢٣

نيقولاوس : ٦٣

النيل : ٢٧ ، ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ،

١٤١ ، ١٥٢

تيمرشت : ٨٦

(ه)

الهسال : ١٢٠

هرماس : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٩٣

هرميس

انظر هرماس

هرميس

انظر هرماس

الهروى : ٢٨

هريسة : ١١٩

الهلالية : ١٤٤

الهند : ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٣

(و)

الورد : ٧٨

الوردية : ١١٩

الورل : ٨٥

الوكيل : ٣٥

(ي)

اليازورى : ١٤٦

الياسمين : ٧٨

يقطين : ٧٨ ، ١١٩

اليمن : ٦٧ ، ١٣٠

ينطواليس : ٨٦

اليهود : ٢٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١٤٦

منز عصر الإغريق على أقل تقدير، ومصر مقصد للرحالة
من المشرق والمغرب،

وقد ترك لنا هؤلاء الرحالة صور نابضة بالحياة لمصر في تلك العصور
الغابرة، صورة تفضل في كثير من الأحيان كتابات المؤرخين لأنها تنقل
مشاهدات حية رآها الرحالة بأعينهم وتسجل العادات والتقاليد
والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. وهي تفضل أيضاً كتب
التاريخ الرسمي لأنها تسجل وترصد بعض الجوانب من حياة الشعب
التي كثيراً ما أهملها المؤرخون التقليديون. ومن خير هؤلاء الرحالة في
العصر الوسطى عبر اللطيف البغراوي. وهو طبيب وعالم مسلم ولحقه في
بغداد وعاصم صلاح الدين الأيوبي، وعمل في خدمته في الشام،
ثم عمل في خدمة أولاده في مصر. وكتابه، على صغره، هام لأنه يتميز
بنزعة علمية في الوصف والبحث كما يتضح من اسمه الإفاوة والاعتبار في
الأمر المشاهدة والحكايات المعينة بأرض مصر، وهو يبدأ
كتابه باستعراض لمواضع مصر العامة، ثم يعرض لنباتها وحيوانها، وقد
اهتم اهتماماً كبيراً بوصف الآثار الفرعونية التي يبدي أشر الإعجاب بها
ويسرد المعتقدات الشائعة حولها في عصره،
وقد اندثر الكثير مما وصف بفعل الإهمال والتخريب، ولكني نعرف حجم
خسارتنا، نطالع وصفه للآثار القائمة بمدينة عين شمس، حيث يقول إن بها
تمثال كان ارتفاع الواحد منها يصل إلى ٣٠ ذراعاً،
أي حوالي ١٥ متراً، ويسجل أن بوابتها كانت لا تزال قائمة في عصره،
وقد اختفى كل ذلك اليوم. ولذا فقد باتت لهذا الكتاب أهمية كبيرة لدى
المعنيين بالدراسات المصرية القديمة.